الحب في المنفى

بهاء طاهر

جائزة أفضل رواية ١٩٩٥

دار الهلال

إبريل ٢٠٠١

الفصل الأول

مؤتمر كغيره

اشتهيتها اشتهاء عاجزا، كخوف الدنس بالمحارم.

كانت صغيرة وجميلة وكنت عجوزا وأبا ومطلقا . لم يطرأ على بالى الحب ، ولم أفعل شيئا لأعبر عن اشتهائى.

لكنها قالت لى، فيما بعد : كان يطل من عينيك.

كنت قاهريا، طردته مدينته للغربة فى الشمال . وكانت هى مثلى ، أجنبية فى ذلك البلد، لكنها أوروبية وبجواز سفرها تعتبر أوروبا كلها مدينتها . ولما التقينا بالمصادفة فى تلك المدينة (ن) التى قيدنى فيها العمل ، صرنا صديقين.

قيدنى العمل .،. أى كذب ! .. لم أكن أعمل شيئا فى الحقيقة . كنت مراسلا لصحيفة فى القاهرة لا يهمها أن أراسلها . ربما يهمها بالذات ألا أراسلها . وفي ساعة الظهيرة فى فسحة الغداء التى تتخلل يوم العمل الطويل لمن يعملون كنا نجلس معا .

نشرب القهوة ، تحدثني عن نفسها وأحدثها عن نفسى ،

ويقربنا الصمت أكثر عندما نتطلع عبر زجاج المقهى إلى ذلك الجبل المستطيل المتعرج، الرابض على ضفة النهر الأخرى كتمساح طويل الذيل.

ولكنى لما بدأت أشتهيها أصبحت ثرثارا . كنت أتحصن وراء جدار الكلمات لكي لا أفتضح، تتدافع كلماتى الفارغة جرارة ومسلية ومتتابعة ، مثل شرنقة دودة عراها جنون الغزل فلا تستطيع أن تكف ، لعلى- وكيف الآن أدرى ؟ - كنت عن غير وعى أغزل من خيوط الكلمات
شباكا حولها . وكانت هى تتطلع إلى بعينيها الجميلتين ، تتسع العينان وهى وتبتسم وتسألني : من أين تأتى بكل هذا الكلام ؟ صنعتى أنا أن أتكلم فكيف تفوقت علي.

ولكنى فى تلك الظهيرة لم أستطع . تبعثرت خيوط الكلمات وتمزقت . حلت فجوات طويلة من الصمت كنت أنظر خلالها ساهما إلى النهر. وجلست هى منكبة على فنجان قهوتها الفارغ تديره فى الطبق ، لا أرى سوى هالة شعرها الكثيف وأنفها البارز المستقيم . وكانت ترفع رأسها فجأة ، تنظر إلى حين أسكت وتقول أكمل .. أكمل .. ولكن الكلمات لا تكتمل.

وخارج المقهى سرنا إلى حيث أركن سيارتى .. سأخذها مثل كل يوم حتى باب المكتب الذى تعمل به ، أتركها وأتظاهر أنا أيضا أنى ذاهب إلى عمل . ولما وصلنا إلى السيارة قالت أريد أن نمشى قليلا هل لديك مانع ؟

مشت بجانبى بطيئة على غير عادتها، ولم نكد نتحرك خطوات حتى توقفت وقالت بصوت حازم : اسمع لا أريد أن أراك بعد اليوم . سامحنى ولكن يحسن ألا نلتقى . أظن أنى أحببتك وأنا لا أريد ذلك . لا أريده بعد كل ما رأيته فى هذه الدنيـــــا.

وكنت أعرف ما رأته فى هذه الدنيا فسكت لحظة وقلت كما تشائين . وراقبتها وهى تبتعد عنى بخطوات مسرعة.

ولكن تلك لم تكن هى البداية.

فى البدء كان كل شىء يختلف . يومها ترددت كثيرا فى الذهاب إلى ذلك المؤتمر الصحفى. كنت أعرف سلفا أن كلاما سيقال لو أرسلته فلن تنشره الصحيفة فى القاهرة ولو نشرته فسوف تختصره وتخففه . تؤخر فقرات وتقدم أخرى بحيث لا يفهم القارىء ما الذى حدث بالضبط ولا ما هى الحكاية . فكرت وأنا فى الطريق أن أذهب إلى المطار . كان ذلك هو يوم وصول الطائرة المصرية إلى المدينة التى كثيرا ما تطؤها أقدام المسئولين على غير انتظار . ربما يصل أحد الوزراء ويقول تصريحات تسعد رئيس التحرير. يضعها فى الصفحة الأولى ويرضى عنى أخيرا ((الوزير . . يصرح : اقتصادنا خرج من عنق الزجاجة . الوزير يقول : سنبحث التعاون الأوروبى فى انطلاقة التنمية ((

وتحولت السيارة بالفعل إلى طريق المطار. يرتاح رئيس التحرير جدا إلى انطلاقة التنمية هذه . تظهر كل أسبوع فى مقالاته . منذ سنوات طويلة جدا والانطلاقة تقفز عنده من عنق
الزجاجة بلا انقطاع . فلماذا لا أسعد رئيس التحرير إن أمكن .. لماذا أذهب إلى ذلك المؤتمر التعيس فى هذا الصباح الصيفى الجميل ؟.. هل أنا بالفعل غاوي نكد. كما اعتادت منار أن تقول ؟ بل ولماذا أذهب إلى المطار ؟.. من قال إن وزيرا سيأتى أو إن رئيس التحرير متلهف على رسالتى ؟ الأفضل أن أسكت تماما . سأعفيه بذلك من الاعتذارات المحرجة : والله يا فلان الرسالة وصلت متأخرة أو طبعناها فعلا ولكن أخبارا من الرئاسة جات فى أخر لحظة وأكلت الصفحة ، أو : هل تعرف ؟.. أنا أحقق مع الولد علان فى القسم الخارجى لأنه لم
يعرض على الرسالة . أحلته إلى التحقيق فعلا إلخ إلخ إلخ .. لماذا أتعب رئيس التحرير وأتعب نفسى؟ لن ينقطع المرتب وهذا هو ما يهم . فلنستمتع بهذا اليوم الجميل.

دخلت بالسيارة فى جانب من الطريق المرتفع الذى يشق غابة فى اتجاه المطار.

.تركت الشارع المرصوف وتوغلت فى طريق مدكوك يتخلل الأشجار ثم ركنت فى الظل . كانت الغابة رطبة وهادئة والأوراق الجديدة التى عادت تكسو الأشجار منذ وقت قليل زاهية الخضرة ، تكاد تكون شفافة .. تتجمع فى قبة هشة ناعمة تحركها الريح الخفيفة فتتسرب أشعة الشمس من بين ثقوبها المتناثرة ، موجات صفراء تسبح بسرعة فوق الحشائش ثم تختفى لكى تعود كالمفاجأة . وكانت تلك الموجات المتتابعة تنير فى مرورها الزهور البرية الصغيرة الصفراء والبيضاء تزخرف الأرض فى الصيف .. فى المرة الأولى التى سافرنا فيها إلى الخارج فى رحلة الأسبوع السياحية إلى بلغاريا، بهرتنى تلك الزخرفة المنمنمة فى الأرض مثلما بهرت منار . سألتنى ونحن فى الغابة . ممنوع أن نقطفها ؟ قلت : لا أظن، فراحت تجمع باقة منها وهى تنسق الألوان ، ولما أنتهت نظرت إلى الزهور يديها وقالت وفى صوتها خيبة أمل : ولكنها كانت جميلة فى الأرض ! وبالفعل كانت الزهور الصغيرة قد ماتت للتو ، طوت وريقاتها فوق قلوبها الدائرية الصفراء وتهدلت سيقانها النحيلة على جانبى يدها . وقلت لها : أعتقد أن هذه الزهور البرية لا تعيش إلا فى الأرض ، ثم أمسكت الباقة الذاوية ورميتها بعيدا مستبقيا زهرة واحدة صفراء أكبر من الأخريات ظلت متماسكة ومشرعة الأوراق رشقتها
فى شعر منار وأنا أقول كم أنت جميلة هكذا . وكانت بالفعل جميلة بتلك الزهرة فى شعرها الأسود فقبلتها وعدنا نضحك من جديد ، سعيدين كما كنا من قبل ، لأننا لأول مرة نتمشى وسط غابة خضراء لا يحدها البصر. ولكن فى المساء ، ونحن فى الفندق ، كان لابد أن أدفع الثمن . فى أى مكان غريب من عقلها كانت تحتفظ بتلك الأشياء الصغيرة ؟.. تلك الأشياء التى كنت أنساها فى لحظتها ؟،. وأية قدرة تلك على توليد المعانى التى لا تخطر على بال ؟ ..توجست ليلتها حين سألتنى شبه مازحة : هل جئت حضرتك إلى أوروبا قبل ذلك من ورائى ؟ ..لكنى جاريت لهجتها وأنا أقول : بالطبع مرات كثيرة فى مهام سرية لماذا تسألين ؟ ..فقالت : كيف عرفت حضرتك أن هذه الزهور لا تعيش إلا فى الأرض ؟.. لزمت الصمت ولكن ذلك لم

ينفع أيضا . تحولت لهجة المزاح إلى نوع من الاستنكار الخفيف وهى تقول : ثم ما هذه الطريقة التى تتعامل بها مع الناس هنا..

أية طريقة ؟

هذا التهذيب المبالغ فيه مع عمال الفندق والمطعم والمحلات ، ومع الناس عموما، أنت عندك عقدة الخواجة ؟

ولكن هل لاحظت يا منار أننى أتعامل مع الناس فى مصر بطريقة مختلفة ؟

مطت شفتيها وأخذت تهز رأسها لليمين واليسار و كأنها تصدر الحكم بعد ترو، وهى تقول : لا، ولكن هنا ألاحظ أن الجرعة أكبر حبتين . أكثر من اللازم . أنك أنها عقدة الخواجة.

هممت أن أرد ولكنى تراجعت وتت : ربما يكون الحق معك . سأراجع نفسى. وكنت قد تعلمت من زمن طويل أن أدارى غضباتها الصغيرة الخفية . وكنت كفى كن عادلا. لابد أنها هى أيضا كانت تدارى غضباتك الصغيرة الخفية . لم تكن المشكلة فى تلك الزهور البرية فما هى بالضبط ؟.. هل كان هناك خطأ منذ البداية ؟. ما هو ؟.. كل ما أذكره أنى أحببتها وأنها قالت إنها تحبنى . أقصد لابد أنها أحبتنى فعلا فى وقت ما ، والا فلم تزوجنا؟.. كنت أفقر واحد بين
المحررين الذين تمنوا الزواج منها لما جاءت لتعمل معنا فى الصحيفة . أسرنى مثل الجميع وجهها البشوش بابتسامتها الدائمة وطريقتها الصريحة فى الكلام معى تحدق مباشرة فى عينى من تحدثه . أسرتنى أكثر من غيري واعتدت أن أبذل جهدا كبيرا لكى أكلمها بطريقة عادية مثلما أكلم بقية المحررات . أحرص دائما أن أحول نظرى فى اتجاه غير الذى تجلس فيه فى صالة التحرير الواسعة.

وكانت هى التى بدأت تقطع المسافة من مكتبها إلى مكتبى لكى تستشيرنى كزميل أقدم فى موضوع تكتبه أو لكى ألقى نظرة على الموضوع قبل أن تقدمه للمطبعة .

ثم بدأت تحدثنى عن مشاكلها فى البيت : يلحون عليها أن تتزوج ويعرضونها على الخطاب كما لو كانت سلعة ، لن تتزوج هى أبدا بهذه الطريقة ، ستختار بنفسها. لماذا يكون الاختيار من حق الرجل وحده ؟.. أخافنى كلامها . قلت لنفسى لن تكون صريحة معى إلى هذا الحد لو كنت أنا الذى اختارته . ولكنى حاولت وتقدمت .
وقالت لى وهى تضحك ونحن نمشى بيدين متشابكتين فى طريق الكورنيش : ماما قالت ألم تجدى غير هذا الصحفى المفلس ؟ تتركين من أجله الضابط والدكتور ! .. وأدهشتنى منار حين قالت بفخر وهى تضغط على يدى معنى هذا أن ماما تحبك وأنها توافق عليك. !

قبل وقت طويل أدركت أن ماما هى الأهم . كانت تشعر بنوع من العار فى حضور أبيها الذى أحببته أنا من أول لحظة لبساطته وطيبته . ولكن منار كانت تخجل حين يجلس معنا ونحن مخطوبان في غرفة الجلوس بالبيجاما أو بالجلباب ويتحدث بفخر عن إشادة رئيسه فى العمل بالأسلوب الذى كتب به المذكرة اليوم ، أو حين يحكى كيف اشترى بطيخة وهو عائد من المكتب بعد أن أقسم له البائع أنها ((شيليان)) ولكن عندما فتحها فى البيت وجدها بيضاء من غير سوء فنزل من فوره وردها إلى البائع الكذاب ، لأنه لا يترك حقه ولا يسمح لأحد بأن يضحك عليه . كان وجه منار يتضرج عندما يحكى هذه القصص وألاحظ نظرة التأنيب فى عينى أمها دون كلام .
ولكن بعد أن تزوجنا لم تكن أمها تبالى بأن تعنفه أمامى . و كانت منار تبكى بالدموع لأنه اعتاد بعد خروجه إلى المعاش أن ينزل إلى الشارع بالجلباب وأن يجلس بالساعات عند الحلاق أو عند البقال أو على دكة البواب . تقول وسط دموعها حرام عليك يا بابا . . سمعتنا يا بابا .. فيعدها وهو يعتذر محرجا ومرتبكا أنه لن يفعل ذلك مرة أخرى.
ولكنه عندما مات فاق حزن منار عليه كل تصور . ظلت تبكيه شهورا طويلة وتناجيه طوال الوقت كأنه جالس بيننا تسأله كيف حاله هناك ؟ لماذا تركها ألا يشتاق إليها ؟ وكنت أسأل نفسى إن لم يكن هناك إلى جانب الحزن نوع من تأنيب الضمير ، وأكد ما جاء بعد ذلك ما كنت أشك فيه . بالتدريج بدأت تتحدث عن أبيها

على أنه كان موظفا كبيرا قوي الشخصية يهابه الجميع فى المكتب بسبب حزمه وشدته فى الحق ، رغم أنه لم يكن يؤذى أحدا وأخذت هى نفسها مع مرور السنين تقتنع بذلك ، تطالبنى فى بعض الأحيان أن أكون حازما مثل أبيها.
وحين أبعدونى عن العمل ولم يعد هناك الكثير مما يشغلنى ، انتبهت فى أول مرة أطلت فيها جلستى عند الحلاق بعد أن انتهى من قص شعري وأخذت أتبادل معه الثرثرة دون هدف . شعرت بالخوف وعدت مسرعا إلى البيت ثم جلست إلى المكتب لأخطط مشروع كتابى . وكانت منار قد بدأت تأخذ صورة أمها بالتدريج. تتهمنى مثلا أننى أدلل الطفلين ومع ذلك تشعر بالغضب إذا ما حاولت أن أعاقب أحدهما وتتصدى للدفاع عنه . ظل العقاب حقا مقصورا عليها و يأتى عادة بعد أن نخرج للنزهة فى يوم الجمعة . اعتادت أن تكتشف باستمرار خطأ ارتكبه أحدهما أو ارتكباه معا : نوع من قلة الأدب كما كانت تقول ، عقابه أن تحرمهما من المصروف أو من زيارة الأصدقاء والأقارب . وحين كانت ترانى ألعب الشطرنج مع خالد تتهمنى بأنى أعطله عن الدراسة ، واذا حملت هنادى وأخذت ألف بها
.هى تضحك تقول : إن هذه اللعبة هى السبب فى أن بطنها كان يوجعها فى الأسبوع الماضى . ولما لاحظت أن خالد يحب الشعر وأنى أشجعه على القراءة ، قالت لا داعى لأن يخيب الولد و هو نابغ فى الرياضة ، ولما . لا ، كفى ! مرة أخرى انتبه وتوقف . إلى أين تريد أن تصل من ذلك . أنها
سيطرت على الطفلين ؟.. ليكن !.. وأين كنت أنت .. لماذا لم تفعل شيئا لتقترب منهما أكثر ؟.. ألم تكن طول الوقت خارج البيت فى الصحيفة أوفى الاتحاد الاشتراكى أو خارج البلد ؟.. على أى شىء تلومها هنا بالضبط ؟.، ثم ما حكاية الحلاق هذه ؟.. ما علاقتها بالمسألة كلها .. كنت أبحث عن السبب . عن بذرة الخطأ . خطئى أنا أو خطؤها هى لكن ما علاقة هذه الأشياء بالمسألة..

فاجأنى وجهى فى مرأة السيارة متجهما وشاردا فأجفلت . قلت لا . لن أعود إلى ذلك . ليس فى هذا المكان الجميل ولا فى هذا الصباح المشمس . لن أستسلم اليوم لذلك الشرود الذى يطفوفيه مشهد مع منار من أى شىء أراه أو طفو دون سبب ثم يسلم

كل مشهد إلى أخر وتمر الساعات على هذا الحال . لا ليس اليوم . إن لم تفلح السكينة فى هذه الغابة أن تنقذنى من ذلك ، فسيكون أى شيء أخر أفضل من البقاء هنا.

وأدرت محرك السيارة

حين دخلت قاعة الفندق لم يكن المؤتمر قد بدأ بعد . كانوا قد وضعوا منضدتين متجاورتين كمنصة وخلفها ثلاثه مقاعد وصفوا فى القاعة حوالى ثلاثين مقعدا وان لم يكن هناك غير ستة أو سبعة من الصحفيين جلسوا متناثرين وصامتين . ربما جاؤوا مثلى لأنهم لم يجدوا شيئا أخر يفعلونه . ومن كنت تريده أن يأتي ؟. . من يهتم الآن هنا أو فى أى مكان أخر؟.. من يعنيه مؤتمر تعقده لجنة اسمها لجنة الأطباء الدولية لحقوق الإنسان عن انتهاكات الحقوق فى شيلى... أى شيلي وأى حقوق ؟. . انتهى يا صاحبى زمن الارتياع عندما ذبحوا الآلاف في استاد العاصمة هناك . انتهى زمن ذرف الدموع على الليندى بعد أن قتله العسكر . قتلوه بعد عبد الناصر بثلاث سنوات . حاربوا عبد الناصر بقولهم ديكتاتور، فلماذا الليندى الذى جاءت به الانتخابات ؟ ..الذئب قال للحمل إن لم تكن عكرت الماء لأنك دكتاتور فقد عكرتها لأنك ديموقراطى . أنت مأكول مأكول على أى حال . ومن يذكر الآن نيرودا ؟. لا أذكر أنى قرأت اسم نيرودا فى صحيفة من بلدى منذ أن قتله الغم بعد أن انقض العسكر على بلده قبل عشر سنوات . أسكتوه أخيرا لكى لايغنى . لكى لا يقول : وعلى شواطىء كل البلاد يعلو صوتى

لأنه صوت من صمتوا ولأن كل من لم يعرفوا الغناء فهم بفمى اليوم قد غنوا.

زمان أيام الشباب ، كنت أقرأ أشعار نيرودا فى صحفنا اليومية ، حتى فى الصحيفة المسائية . أيام كانت الصحف تقول إن انتصار الناس فى أى بلد يعنى الحرية لنا . أيام بكينا على نكروما وعلى لومومبا . أيام كان راديو القاهرة يغنى لبورسعيد والجزائر و الملايو و شعوب كالبشائر تنبت الأزهار من قلب المجازر !.. نعم ، لا أقل من الأزهار من قلب المجازر ! أذكر أيامها صديقا كانت تلمع فى عينيه دموع حين يقرأ علينا قصيدة)) الأطفال فى بلدى يموتون جوعا

والأسماك فى البحر تشرب القهوة ((. الآن لا يبكى على هذا أحد . لا يبكى أحد لأن سادة دنيانا يغرقون البن فى البحر أو يهشمون جبال البيض . الناس الآن أعقل . العواطف الآن أهدأ . الدموع الآن لا تنزل إلا من إدمان النظر للتلفزيون ، بما فى ذلك دموعك أنت أيها المنافق !.. أنت ولجنة أطبائك الدولية..!

كان في يدي كتيب أخذته اعتباطا من بين عدة كتيبات موضوعة على منضدة في مدخل القاعة . رحت أقلب الصفحات . المنصة لاتزال خالية رغم أن موعد المؤتمر قد حل . مرت عيني على سطور في الصفحة المفتوحة من الكتيب : أمتا طرق التعديب في سجون شيلي فهي نفسها التي وصفتها اللجنة في نشراتها السابقة عن ذلك البلد وعن بلاد أخرى في أمريكا اللاتينية وبقية القارات وكان أكثرها شيوعا في شيلي الصدمات الكهربائية على طريقة الشواية . أي وضع أقطاب كهربائية متحركة على جسم الكجني عليه وهو مقيد إلى سرير حديد ومغطى بالشمع . وتحدث الصدمات بهذه الطريقة ألاما قاسية جدا فى العضلات والإعصاب تستمر اثارها لعدة سنين ، إذ يصاب الشخص بارتباك فى حركة العضلات وبحالات أرق مستمر وكوابيس وتسيطر على المريض حالات غريبة يتصور فيها أنه يسلط بنفسه التيار الكهربائى على جسمه ويعيش محنة التعذيب الأول نفسها وآلامه .. وهناك طريقة الصدمات الكهربائية التى تسمى (الإبرة) وهي....

توقفت عن القراءة حين سمعت حركة فى القاعة ورأيت شخصا طويلا أشيب يتقدم ويجلس على المنصة . أخذ يجول بعينيه فى القاعة شبه الخالية بنظرة هادئة لم تشبها أى دهشة لقلة الموجودين . ولما بدأ يتكلم بالانجليزية خمنت من لهجته أنه من ألمانيا أو من إحدى دول الشمال . قال إن اسمه مولر وانه طبيب ، نهض يعتذر للتأخير فى بدء المؤتمر ولكنه سيذكر لنا السبب بعد قليل . وشرح أن اللجنة التى يمثلها والتى تضم أطباء متطوعين من بلاد مختلفة تهتم بحقوق الإنسان بوجه عام ولكنها تركز بالذات على الجوانب الصحية والطبية . وقال إن اللجنة وجدت فى شيلى حالات خطيرة جدا بين المسجونين السياسيين الذين يبلغون

عدة ألاف . وبدأ يذكر أرقاما عن حالات المرضى فى السجون وعن التعذيب بالضرب وبالكهرباء وبالحرمان من النوم وبالاغتصاب الجنسى وبوسائل أخرى . وقرأ أسماء بعض الذين ماتوا تحت التعذيب.

بدأنا نوجه له أسئلة عادية تستوضح بعض التفاصيل والأرقام ، ولكن فجأة وقف صحفى أعرفه من أهل البلد ، وكانت صحيفته المسماة ((الوطن)) تهاجم باستمرار اللاجئين من شيلى وغيرها من البلدان وتطالب بإعادتهم إلى بلادهم و طردهم .
كانت تنشر مقالات متتابعة عن اللاجئين وتقول إنهم يزحمون البلد وينشرون الجرائم ويلوثون البيئة وانه يجب إنقاذ الوطن من هذا الخطر ، ووجه كلامه إلى الدكتور مولر بلهجة استفزازية قائلا : ألا تعتقد برغم كل ما
يقال عن شيلى انها أكثر استقرارا من بلاد كثيرة ؟ ألا تعتقد أن عدد من يموتون في السجون أقل بكثير من عدد من تقتلهم الحروب الأهلية فى البد المجاورة لشيلى .. ؟

ارتفعت فى القاعة همهمة غاضبة ولم تبال صحفية تجلس فى المقعد الذى أمامى أن تسأل بصوت مسموع : هل وجهتم الدعوة أيضا إلى جنرالات شيلى لحضور هذا المؤتمر ؟ وعلق أخرون على كلامها ولكن الدكتور مولر نقر بإصبعه مرتين على المنصة وقال لمندوب الوطن بهدوء : سيدى أنا لست سياسيا ومنظمتنا ليست سياسية . نحن أطباء نتحدث عن حالات حققنا فيها بدقة وتأكدنا منها ، ومع ذلك فأنا أذكرك أنه قبل الانقلاب العسكري لم يكن أحد يموت فى
شيلى ، لا فى حروب العصابات ولا فى السجون . هكذا يجب أن تقارن إن أردت.

ثم نظر الدكتور مولر إلى ساعته وقال : معذرة . استأجرنا هذه القاعة لساعة واحدة وتأخرنا قليلا لأن مشكلة صادفتنا فى تقديم الترجمة من الاسبانية لشهادة يهمنى أن تستمعوا إليها . وأشار إلى الصف الأول فنهض رجل وفتاة جلسا إلى جواره وهو يكمل : كان المفروض أن يأتى مترجم محترف ولكنه اعتذر فى اللحظة الأخيرة وتطوعت صديقة هى بريجيت شيفر بتقديم الترجمة وأنا أشكرها.

كانت بريجيت تلبس زيا أزرق من قطعتين كمضيفات الطيران وحول رقبتها إيشارب وردى اللون ، وقالت تخاطبنا وهى تجلس بين مولر والرجل الآخر وتبتسم بشىء من الارتباك : ستسامحوننى إذا أبطأت لأن هذه أول مرة أعمل فيها مترجمة .
وكانت كل العيون الصحفية مثبتة عليها لأنها كانت جميلة جدا وقال أحد الصحفيين : سنسامحك بكل سرور . من فضلك خذى كل الوقت . ضحك بقية الصحفيين ولكن الدكتور مولر عاد ينقر بإصبعه قائلا بجدية تكاد تصل إلى التأنيب : كما ذكرت لكم فأن هذه الشهادة تهم منظمتنا بصفة خاصة لأنها تمس
أيضا رجال الطب ، ولكنى أفضل أن تستمعوا بأنفسكم . ثم أشار إلى الرجل كي يتكلم .

و لأول مرة تحولت ببصرى من بريجيت إلى الجالس على يمينها . ولم أستطع من مكانى أن أتحقق من وجهه فقد كان يحنى رأسه بشدة حتى اقترب من ذراعيه اللتين كان يشبكهما أمام صدره ولم أر بوضوح غير شعره الأسود الناعم . بدأ يتكلم بصوت خافت ويبدو أن بريجيت طلبت منه أن يرفع صوته فقد كرر كلماته ولكن دون أن يرفع رأسه وبدأت هى بعد كل وقفة فى كلماته تترجم إلى الانجليزية التي يتعامل بها المراسلون الصحفيون فى البلد.

قال إن اسمه بيدرو إيبانيز ، عمره ٣٩سنة ويعمل سائق تاكسى فى العاصمة سانتياجو . فى بداية السنة كان يقف بعربته فى موقف التاكسيات أمام المحطة الرئيسية منتظرا دوره . رأى شخصا يخرج من المحطة وبيده حقيبة يتوجه نحو الموقف وقبل أن يصل إليه تقدم منه سائق لم يره بيدرو من قبل محاولا أن يأخذ الحقيبة وهو يشير إلى سيارة فى الموقف . ولكن الراكب رفض أن يعطيه الحقيبة أو أن يذهب معه ، وتوجه إلى سيارة بيدرو التى كانت أقرب عربة أمامه . وبعد أن تحرك فى اتجاه العنوان الذى أعطاه له الراكب لاحظ أن سيارة تاكسى أخرى تتبعه . رأى فى المرآة السائق نفسه الذى حاول أن يأخذ الحقيبة ورأى معه أشخاصا أخرين ، وانتبه الراكب أيضا وأخذ ينظر للخلف . بدا مرتبكا وبدا أنه يحاول التغلب على خوفه . وخاف بيدرو أيضا والراكب يقول له أسرع .. أسرع

وهو ينقل بصره إلى الخلف والى الأمام باستمرار . ثم قال لبيدرو فجأة اسمع إنهم يريدونني إنهم من إدارة الأمن الوطنى . فاشتد خوف بيدرو لأنه يعرف ما هي إدارة الأمن الوطنى . فكر أن يوقف السيارة وأن ينزل الراكب ولكنه لم يطمئن لعواقب ذلك ، وحين طلب منه الرجل أن يترك الشارع الرئيسى وأن يدخل
في طريق فرعى سمع كلامه . قال بيدرو إنه ندم بعدها وانها كانت فكرة سيئة-

فقد كان من الصعب على ركاب السيارة المطاردة أن يفعلوا شيئا فى الشارع المزدحم ولكنهم انفردوا بهما فى الطريق الفرعى القليل الحركة . أسرع قدر استطاعته ليهرب منهم ولكن سيارتهم كانت جديدة وسريعة . ولاحظ ذلك فلم يعد يتلفت وراء واضطجع فى مقعده قائلا لبيدرو بهدوء : اسمع ... أنا اسف لأنى زججت بك فى هذه الحكاية ، لم يعرف بيدرو أبدا مع ذلك ما هى الحكاية . ولكن عندما حاذتهما السيارة فى إحدى إشارات المرور فتح الراكب
الباب فجأة من الناحية الأخرى ثم قفز وبدأ يجري فى الشارع . جرى خطوتين فحسب . وقال بيدرو إنه لما بدأ إطلاق الرصاص انزلق فى مقعده ليحتمى ولكنه شعر بالرصاصة التى دخلت فى جنبه فى اللحظة نفسها ورأى الراكب وهو يسقط فى الطريق والدم ينفجر من رأسه.

كان بيدرو يحكى بصوت رتيب و بريجيت تترجم بلهجته الرتيبة نفسها وهى تنقل بصرها بينه وبيننا فى القاعة ، ولكنى لاحظت وجهها يتصلب بالتدريج وصوتها يرتفع قليلا بينما كان بيدرو يشير بإصبعه إلى الموضع الذى دخلت فيه الرصاصة فى جنبه . واستحثه الدكتور مولر بحركة من سبابته أن يسرع قليلا وهو يشير إلى الساعة فهز بيدرو رأسه كالمعتذر . كان قد نسى خجله وراح يتطلع نحونا ، لاحظت عينيه الواسعتين وتحتهما هالتان سوداوان عريضتان
كحاجبين مقلومين . وسألت نفسى إن كان هذا هو الأرق.

وتغيرت لهجة بيدرو منذ اللحظة التى استحثه فيها مولر . أخذت الكلمات تخرج من فمه متدافعة ومتقطعة . وكانت بريجيت تجد صعوبة فى متابعته وتعتذر لنا أحيانا

وتسترجعه بعض ما قال . ولم تعد الحكاية مرتبة . عاد يشرح مشيرا. هذه المرة
إلى صدره وقال دخلت الرصاصة فى صدرى .. وأنا بالطبع لم أكن أعرف الراكب ..
أسف . أقصد أن الرصاصة دخلت فى جنبى واستقرت فى صدرى كما قالوا فى
المستشفى .. فى هذا المكان .. ولكن أنا لم أر هذا الرجل قبل أن يركب التاكسى
وأعتقد أنه مات .. لا .. أنا متأكد أنه مات لأننى رأيت
بعينى الدم ورأيت أجزاء من مخه على الرصيف قبل أن أفقد الوعى .. ولما سألنى
الضابط فى المستشفى كنت أشعر بعطش شديد هززت إصبعى هكذا ((لا أعرفه))
فنزع الضابط من ذراعى حقنة الدم الذى كانوا ينقلونه ونزع أنبوب الأوكسجين من
أنفى .. قال الضابط سأتركك تموت لأنك صديقق كابتيللو لماذا اختارك بالذات من
بين سائقى التاكسى؟ . طبعا كان الطبيب واقفا لما حدث ذلك والضابط كان والضابط
كان من الأمن الوطنى . وبعد أن انتزع أنبوب الأوكسجين بدأت بالفعل أموت بالفعل
أقصد ضاع النفس تماما وكانت هذه أول مرة أسمع فيها اسم كابتيللو .. لم اسمع
باسمه ولم يسمع أخى باسمه . . وحين حاولت أن أقول هذا للضابط اندفع دم كثير
من فمى وفقدت الوعى مرة أخرى . . ولكن فى اليوم التالى بدأوا استجوابي أيضا
حين أفقت . كانوا فى ذلك اليوم ثلاثة من إدارة الأمن الوطنى وسألونى عن اسرتى
هل نحن اشتراكيون ؟ هل نحن من حزب الليندى ؟.. أنا فى الأصل من الريف ولكننا
حتى لم نأخذ أرضا عندما وزعوا أراضى الأغنياء على الفلاحين فى الريف ، لا أنا
ولا أخى . . لهذا لم يحدث لنا شىء عندما رجع الأغنياء بعد الانقلاب واستردوا
أرضهم ، أقصد لم ندخل السجن مع الفلاحين الذين كانوا قد أخذوا الأرض ولكنى لم
أستطع أن أقول ذلك . لم أستطع أن أرد .. كنت متعبا جدا . . فمد واحد من الضباط
يده وأغلق اسطوانة الأكسجين وشعرت مرة أخرى بالدم فى حلقى وفى فمي، اسمع
غرغرته فى حلقى ولكنى لا أستطيع أن ألفظه من فمى فجاء الطبيب بجهاز وضعه
فى حلقى وبدأ يسحب الدم . . ملاء منه زجاجات كثيرة . قال الطبيب إنه ينصحنى
أن أتكلم لكى أعيش ولكنه لم يفتح اسطوانة الأوكسجين . كل ما قاله للضابط هو
أننى لابد أن أتكلم . وبسط بيدرو يديه أمامه وقال لنا نحن الصحفيين فى القاعة
بصوت مرتفع وعينين متسعتين : كيف يمكن للإنسان أن يتكلم دون أوكسجين ؟.

ضحك مراسل صحيفة الوطن وتطلع نحوه بقية الصحفيين فى غضب وقال له أحدهم هس ! ولكنه ظل ينظر أمامه دون مبالاة ودون أن يلتفت إلى أحد، وأحس بيدرو أنه ارتكب غلطة غير محددة فزاد ارتباكه وتشتته وعاد يحكى محني الرأس:

أظن هذا فى اليوم الثالث .. لا، فى اليوم الرابع .. عندما جاءوا بأخى فريدى.. وقالوا إنهم اكتشفوا أن فريدى اشتراكى وأننى كذاب .. هل قلت إن أخى طالب فى الجامعة ؟ صرخوا فى وجهى لابد أن تقول كل ما تعرفه عن كابتيللو.. ولكن إذا لم أكن أعرف كابتيللو فماذا يمكن أن أقول عنه ؟.. يومها أيضا لم أكن أقدر على الحركة . ورأيتهم وأنا راقد على سريري يخلعون ملابس فريدى .. رأيتهم يضعون منشفة كبيرة فى فمه .. أوثقوه من قدميه ومعصميه على سرير معدنى بجوار سريرى .. كل ما كنت أستطيع أن أحركه هو عينى .. وصرخت أقول فريدى لا يعرف كابتيللو و أنا لا أعرف كابتيللو .. صرخت ولكن لم يخرج من فمى أى صوت .. ورأيتهم يضعون على جسم فريدى الأشياء الكهربائية .. ووضع الطبيب سماعته على صدر فريدى لحظة ثم هز رأسه للضابط وانسحب .. ولكن الطبيب ظل واقفا لما شغلوا الكهرباء .. وسمعت شهقة فريدى برغم المنشفة التى فى فمه .. ورأيت جسمه العاري يرتفع عاليا ومقوسا ومشدودا حتى تحرك معه السرير كله واستطعت لحظتها أن أتكلم فقلت..

ولكننا نحن ، فى المؤتمر ، لم نستطع أن نعرف ما الذى قاله بيدرو إيبانيز لحظتها . فجأة توقفت بريجيت شيفر عن ترجمتها السريعة اللاهثه .. فجأة ظلت تتطلع إلينا وقد اتسعت عيناها واستطال وجهها بينما راحت شفتاها ترتجفان.

وفى البدء لم يلاحظ بيدرو الذى كان يتكلم خافض الرأس و واصل الحديث بأسبانيته المتوترة .. ولم أميز من أقواله غير كلمات فريدى .. إدارة الأمن الوطنى.. كابتيللو .. الطبيب .. بينما ظلت بريجيت تحدق فينا وهى تزم شفتيها . كانتا تنفرجان بالرغم منها فتزمهما من جديد . لم تبك ولم يصدر عنها أى صوت.

فقط أخذت تتطلع إلينا بعينيها الزرقاومن الواسعتين . وأخيرا أحس بيدرو أيضا بالصمت فرفع عينيه المحفوفتين بهلالين أسودين.

كان من مولر ينظر إليها أيضا من الناحية الأخرى من المنضدة فمد يده ووضعها على يدها المستندة إلى المنصة غير أنها انتزعت تلك اليد بسرعة كأنها لدغت وغمغمت شيئا لم أتبينه وهى تنهض وتبتعد فى خطوات مسرعة ثم اختفت فى ممر مواجه لنا.

ظل مولر يتابعها ببصره للحظة ثم التفت نحونا وقال معذرة . انتهى الوقت المسموح به للمؤتمر على أية حال . كل ما أستطيع أن أقوله هو أن لجنتنا حققت في الواقعة وتأكدت من كل تفاصيلها : استطاع بيدرو أن يهرب من المستشفى بعد بضعة أسابيع وساعده أصدقاء على الهرب إلى خارج شيلى بعد ذلك ثم عولج فى كندا من مضاعفات خطيرة أصابت صدره بسبب الرصاصة والتعذيب أما شقيقه الطالب فريدى - أو الفريو إيبانيز - فقد مات تحت
التعذيب . كل التفاصيل تجدونها فى النشرات الموجودة عند مدخل القاعة . . ونشكر لكم أى تعارن معنا إذا نشرتم عن هذه الوقائع و. . .

قامت الصحفية التى أمامى لتلتقط صورة لبيدرو الذى كان ينظر إلى الطبيب وإلينا بشىء من الحيرة والخجل . وبعد أن أخذت الصورة جلست وهى تقول بصوت مرتفع : لعنة الله على هذه المهنة!

ورد برنار الصحفى الذى يجلس فى الطرف البعيد من القاعة وهو يقوم من مقعده : أية مهنة ؟ . . الصحافة أو إدارة الأمن الوطني أو الطب أو الكهرباء أو قيادة التاكسي ؟

ثم ركل المقعد المعدني بقدمه وقال : أم هذا العالـــــــــــــــم ؟

واستمر صليل المقعد لثوان ثم اختفى .

الفصـــل الثـــانى

ماض بعيد .. ماض ميت

وقفت عند مدخل القاعة أقلب فى بقية النشرات . على غلاف واحدة منها كانت هناك صورة لبيدرو إيبانيز وإلى جوارها صورة شاب يشبهه خمنت أنه فـــريدى . كان مثل بيدرو - واسع الفم غزير الشعر ، يعلو عينيه السوداوين حاجبان كثان ، وكان يلبس قميصا أبيض أزراره مفتوحة عند صدره ويحاول أن يبدو أكبر من سنه بشفتيه المضمومتين فى وقار والنظرة الجادة فى عينيه . ولـــم أندهش عندما رأيت معظم الصحفيين يخرجون دون أن يلقوا نظرة على هذه النشـرات . كانوا ينصرفون مسرعين كأنهم يهربون من المكان كله ومن الحكاية كلهـــا .. أعرف أنه قبل الغداء سنكون جميعا قد نسينا بيدرو وفريدى وشيلى وسيبحث المضطرون إلى إرسال برقيات أو أخبار إلى صحفهم عن موضوعات أخرى . ولكن بينما أقف هناك ربتت يد على كتفى وسمعت من يقول :

- كنت أبحث عنك .

التفت وهتفت فى دهشة : إبراهيم ؟!

نعم ! هو بعينه إبراهيم المحلاوى بعد كل تلك السنين ، أصبح أكثر نحولا وشاب شعره ، وإن لاحظت أنه ظل وسيما فى كهولته مثلما كان فى شبابه . حاولت أن أبتسم وأنا أمد يدى لأصافحه ، غير أنه فجأة أحاط كتفى بذراعه اليسرى وعانقنى بقوة . وأدهشنى ذلك قليلا .

وشعر ابراهيم بجمودى فابتعد عنى خطوة وهو يقول : مضت سنوات طويلة منذ التقينا آخر مرة . أليس كذلك ؟

ثم نظر إلى وجهى المرتبك وقال وهو يبتسم : أعرف أنك تحفظ الكثير من الشعر . ألا تذكر إذن قول أمير الشعراء :

محا الموت أسباب العداوة بيننا ؟ ..

ماتت أشياء كثيرة يا صديقى خلال هذه السنين ولم يعد للعداوة معنى .

قلت بشىء من الخجل : بالطبع بالطبع .. أمازلت تعمل فى بيروت ؟

– نعم ، أنا هنا فى زيارة عمل ، وصلت بالأمس فقط .

– آسف لأننى لم أنتبه إلى وجودك فى المؤتمر وإلا لكنت ..

قال إبراهيم وهو يقلب النشرات ويتصفحها ثم يدس بعضها فى حقيبة جلدية صغيرة : صدقنى ولا أنا رأيتك ولا توقعت وجودك . لا أظن أن صحيفتك تهمها أخبار شيلى .

ولاحظت أنى مازلت أمسك فى يدى النشرة التى عليها صورة بيدرو فأعدتها إلى مكانها وأنا أقول : وهل تهم أية صحيفة أخرى ؟ .. سيكون بيدرو إيبانيز محظوظا لو نشرت أى صحيفة فى العالم حكايته فى خمسة أسطر . أما صحيفتنا بالذات كما تعلم فإن أهم أخبار العالم فيها لم تعد تتجاوز خمسة أسطر. نحن تطورنا .

ضحك إبراهيم ضحكة خافتة ونحن نبتعد عن مدخل القاعة وقال : نعم . لا أنسى أبدا دهشتى عندما رأيت الصحيفة لأول مرة بعد هذا التطوير . كنت فى بغداد وقتها ووقعت فى يدى نسخة فقرأت عنوانا فى الصفحة الأولى داخل مربع كبير «عرفة للسبتية ودلال للتموين» . ظللت أحدق فى العنوان لفترة وأنا أظن أن هناك أخطاء مطبعية ، ولم أفهم إلا بعد أن قرأت الخبر أنه يتحدث عن تنقلات لبعض الموظفين الكبار أو الصغار الله أعلم . لم أفهم أيضا أن السبتية معناها الجمرك إلا بالقرائن . هل كنت تتخيل فى أى وقت أن تتطور هكذا صحيفتنا الثورية ؟

لوحت بيدى قائلا : لا تفتح هذا الباب أرجوك . هل لديك وقت لنشرب القهوة ؟

– بل ولنتغدى أيضا إن لم يكن لديك مانع.

ظلت حرارته تدهشنى رغم ذلك إلى حد ما . ولكنى بذلت جهدا ونحن نسير فى الطريق ونتبادل أخبار من نعرف من الأصدقاء لكى لا يشعر بأى فتور فى حديثى معه . كنت سعيدا بالفعل لرؤيته رغم أننا لم نكن صديقين حميمين فى أى وقت ،

حتى عندما تزاملنا أول مرة كمحررين فى صفحة الأخبار الخارجية أيام الشباب . كان هو ماركسيا متحمسا يقول إننى مثالى وحالم ، وكان رأيى فيه أنه متحجر ويعيد عن روح الناس . أيامها كنت أقرأ ساطع الحصرى والقوميين العرب وأعتقد مع عبد الناصر أن دولتنا الكبيرة ستقوم غدا ، وعلقت فوق رأسى بالفعل فى صالة التحرير الكبيرة التى تضمنا تلك العبارة من خطابه الشهير يوم الوحدة مع سوريا «دولة عظمى تحمى ولا تهدد ، تصون ولا تبدد» كتبها لى خطاط الصحيفة بخط كوفى جميل ووضعتها تحت خريطة الوطن الكبير . وكان إبراهيم يحرص على أن أرى ابتسامته وهو يتطلع إلى تلك اللوحة متظاهرا بالاستغراق فى التأمل فأثور ويبدأ بيننا الجدل والشجار . ولكننى حزنت بالطبع عندما قبضوا عليه بعد ذلك ضمن من اعتقلوهم من الشيوعيين فى سنة ٥٩ وكنت أفتقده . ثم نما بيننا بعد خروجه من المعتقل وعودته إلى الصحيفة شىء من الود كما يحدث بين زميلين قديمين إلى أن جرى بيننا ما جرى قبل خروجه من مصر . ولما جاءت محنة السبعينات التى أدركتنى ورقيت فى الصحيفة مستشارا لا يستشيره أحد ، كان هو يعمل فى العراق ، ثم سافر الى سوريا ، إلى أن استقر فى بيروت منذ سنوات لكى يعمل مع صحيفة تصدرها إحدى منظمات المقاومة هناك .

وبينما نسير فى طرقات المدينة الأجنبية التى جمعتنا على غير انتظار كان كل منا يحاول أن يتغلب على ارتباكه . بذلنا محاولة حقيقية لكى نتكلم كصديقين قديمين التقينا بعد فراق طويل ، ولكن فترات الصمت كانت محرجة لأننا لم نكن نريد أن نعود إلى أى حديث حقيقى عن الماضى . وبدأت أحدثه عن معالم المدينة التى كان يزورها لأول مرة . عبرنا ميدانا فسيحا فى طريقنا من الفندق إلى شاطىء النهر . وكانت تحيط بالميدان مبان من الطراز الرومانى الجديد تحدد مداخلها أعمدة سامقة ، ويتوسطه تمثال رجل أصلع يركب حصانا ويشير بسبابته إلى الأفق بطريقة وقورة ، ورحت أشرح لإبراهيم هذا هو المتحف، وهذه إدارة الجامعة . وهذا الفارس قاد معركة لتحرير البلد من الفرنسيين فى القرن التاسع عشر . حاولت أن أتحدث بأقصى ما أستطيع من التفصيل لكى يستمر الحديث .

وكان إبراهيم يتابعنى مغمغما نعم ، نعم ، حقا ؟ ..

ولكن لما لم يعد هناك ما يقال استسلمنا وسرنا صامتين .

أخيرا قلت لابراهيم : معذرة إن كنت قد جعلتك تسير كل هذه المسافة ، فأنا أحب هذا المقهى وأركن سيارتى دائما بالقرب منه . توقف إبراهيم قليلا عند مدخل المقهى ثم قال : ولكن معك حق كنت سأندم حقا لو تركت البلد دون أن أرى هذا المكان ..

ولم أعرف إن كان قد قال هذا الكلام ليجاملنى أم أن المكان أعجبه بالفعل . أما أنا فكنت أحب بالفعل ذلك المقهى البيضاوى الشكل الداخل فى النهر كصدفة ملقاة على اللسان الصخرى . كان يشغل موقعا هادئا من الشاطىء ويقود إليه ممشى طويل ، تزين الزهور المعتنى بها أحواضا ممتدة على جانبيه.

ولم يكن بالمقهى غير قليل من الزبائن فوجدنا مكانا بسهولة عند نافذة مفتوحة، تطل عبر النهر العريض على الجبل الذى اكتسى فى ذلك الوقت من السنة بخضرة غاباته وحدائقه الشاسعة ، وتناثرت وسط أشجاره البيوت البيضاء بسقوفها القرميدية التى تبرز كأهرامات متدرجة كلما ارتفعت فى الجبل ، إلى أن تصبح عند القمة مجرد مثلثات حمراء دقيقة وسط الأشجار .

قال إبراهيم بصوت خافت حين جلسنا

- كل هذا السلام والسكينة .

خمنت أن بيروت طرأت على ذهنه فى تلك اللحظة ، ولكنى لم أعلق . تركته مستغرقا فى تأمل النهر الذى كانت مياهه الرائقة تندفع بسرعة وترفع موجات فضية متلاحقة تتألق بنور خاطف ، وفى متابعة بجعات بيضاء تسبح فى حركات دائرية وهى ترفع رءوسها الشامخة متطلعة إلى النوافذ فى صمت . ولم يكن البط بجسمه البنى ورقبته البنفسجية اللامعة يكتفى بالتطلع نحونا وهو يحوم بحركات قلقة تحت النوافذ ، بل أخذ يحرك مناقيره ، بنداءات متعاقبة ، فاستجابت له سيدة تجلس بالقرب منا وراحت تلقى له بفتات الخبز .

ظل ابراهيم فترة طويلة ينقل بصره بين النهر والجبل ثم قال وكأنه يتابع

تفكيره :

– كم أنت محظوظ لأنك تعيش هنا .

- نعم ، كم أنا محظوظ .

وأحس إبراهيم شيئا فى لهجتى فنظر إلىّ كالمُعتذر وهو يقول :

– أقصد ...

ولم يكمل . وعندما جاء الجرسون سألت إبراهيم إن كان يريد أن يشرب بيرة، فقال :

ـ ليس فى الظهيرة ، اتفقنا على القهوة ..

طلبنا القهوة وقلت وأنا أبتسم: لم أسمع أنك ترفض البيرة فى الظهيرة أو العصر .

فقال باقتضاب : حكم السن .

ثم أشار إلى رأسى قائلا : وعلى ذكر السن ، كيف حدث أن شعرك ما زال أسود حتى الآن ؟ كلنا شابت رءوسنا فكيف بقيت أنت هكذا؟..

أشرت إلى رأسى أيضا وضحكت ضحكة صغيرة وأنا أقول : توقف نموى .

فضحك إبراهيم بدوره وقال : لو كان التوقف عن النمو ينفع فى منع المشيب لما ابيض شعرى هذا ولرأيتنى وشعبنا العزيز من المحيط الى الخليج وقد رجعنا أطفالا مرحين فى المهد . كلنا توقف نمونا .

أشرت إليه بإصبعى منبها : لا يصح أن يصدر هذا الكلام عن شخص متفائل مثلك .

فهز رأسه وهو يعاود النظر إلى النهر : نعم لايصح هذا الكلام فى مثل هذا المكان . فلنحاول أن ننسى . كيف حال أولادك ، ناصر وهنادى ؟

ـ تقصد خالد وهنادى . خالد فى السنة الثالثة بكلية الهندسة وسيزورنى هنا قريبا . سيمثل مصر فى مسابقة دولية للشطرنج للشباب فى لندن ، وسيمر على فى طريقه الى هناك وهنادى فى الاعدادية ، لكنى لم أرها منذ الصيف الماضى . أكتب لهما ونتكلم كثيرا فى التليفون .

قال إبراهيم محرجا بعض الشىء : نعم أنا بالطبع سمعت بما حدث بينك وبين منار . تجنبت أن أذكر شيئا حتى الآن لكى لا أبعث ذكريات سيئة ولكننى حزنت كثيرا عندما سمعت مسألة الطلاق . كنت أقدركما دائما أنت ومنار رغم اختلافنا فى الرأى . كانت تعجبنى شجاعتها فى الدفاع عن المرأة .

قلت بحماس مبالغ فيه وأنا أبسط يدى : وأنا أيضا أقدرها كثيرا بطبيعة الحال ، وأعتقد أن صفحة المرأة التى تحررها مازالت هى الشىء الوحيد المقروء فى صحيفتنا بعد التطوير .

قال ابراهيم بشىء من الحيرة : إذن لماذا ؟.. كنت تحدثنى أحيانا عن بعض الخلافات بينكما وأذكر أننى كنت أدافع عنها دائما وأحملك أنت الخطأ . شىء معين كان يتكرر فى هذه المشاجرات واعتدت أن ألومك عليه .. أظن أنك كنت تعترض على قيامها بأعمال إضافية فى الصحيفة ؟

- نعم . كنت أعتقد أن الأولاد أحق بأن تقضى معهم وقتا أطول فى البيت .

قال وهو يهز رأسه دون اقتناع : ولماذا لم تعتبر أن الأولاد أحق بأن تقضى أنت معهم وقتا أطول فى البيت ؟ .. أنت الذى كنت معظم الوقت فى الخارج ، إما فى الصحيفة أو فى الاتحاد الاشتراكى أو فى مهامك الصحفية فى الداخل أو فى الخارج ، لماذا لم يكن من حقها هى أيضا أن تفعل مثلك ؟

قلت لنفسى آه ، لقد بدأنا ! الاتحاد الاشتراكى والصحيفة ، هل هذا الحديث عن منار أم عنك أنت يا إبراهيم ؟ .. تجرنى الآن خطوة خطوة لكى تبدأ الحساب، أليس كذلك؟ ولكننى رددت بشكل آلى :

- ربما تكون على حق . كنت أعتقد أن الأمومة أهم من أى شىء آخر . أهم حتى من الأبوة . ربما أكون قد أخطأت هنا ، ولكن على العموم لم يكن هذا هو السبب .

- ماهو إذن ؟

تنهدت قائلا : منذ سنوات وأنا أسأل نفسى هذا السؤال يا إبراهيم .

قال بلهجة استنكار : تعنى أنك لا تعرف السبب فى طلاقك من منار ؟

هززت رأسى نفيا وأنا أقول : كانت هناك مشاحنات كثيرة ، تحدث بين كل زوجين كما تعرف ، ولكنها لم تكن هى السبب الحقيقى .

قطب إبراهيم جبينه وهو يقول بصوت خافت : عادة مايكون السبب الحقيقى امرأة أخرى أو رجلا آخر ولكنى لم أسمع شيئا عن ذلك بالنسبة لك ولا لمنار ، حتى بعد هذه السنين .

ثم سكت لحظة قبل أن يقول : ربما كنتما .

تردد قليلا فسألته بلهفة أثارت استغرابه : ربما كنا ماذا ؟

فنظر فى عينى مباشرة وهو يقول : ربما كنتما ، أقصد رأيى أنك أنت ومنار كنتما تبحثان عن حب كامل ومستحيل فى هذه الدنيا ، لهذا كنتما تتشاجران لأتفه خيبة أمل تبعدكما عن هذا الكمال المستحيل .

- ربما .

حولت وجهى نحو النافذة لأوحى بأننى لا أريد متابعة الحوار ، وسألت نفسى مرة أخرى : هذا أنا ومنار أم أنت يا إبراهيم ؟ .. ألا تتحدث الآن عن نفسك بالذات ؟ .. وهل كان هذا البحث عن المستحيل هو السبب فى أنك تركت شادية أيام الشباب وفى أنك لم تتزوج حتى الآن ؟ .. ولكن من أنا لأقول ذلك ؟ .. إن كنت أجهل نفسى فكيف أحكم على الناس ؟ .. ولكنه يسألنى عن السبب . تقول رجل آخر وامرأة أخرى ؟ لكم كانت الأمور تصبح سهلة ومفهومة ! تقول بحث عن الكمال ؟ .. ولكننا عشنا معا سنين طويلة وقبلنا الحياة كما هى . لم نتوقع منها أن تعطينا ما تعجز عنه . ومع ذلك فإن النهاية فى ذهنى ضباب كامل . ألغام تنفجر فى الظلام . مشاجرات تتكرر كل يوم وإهانات متبادلة وصلح مؤقت وعتاب على ماحدث فى الماضى وتعهدات للمستقبل قبل أن ينفجر لغم جديد ويرجع كل شىء إلى أوله دون أن نعرف السبب . فكرت كثيرا - لكم فكرت - قلت ربما كان لذلك كله علاقة بما حدث لى فى العمل . لم تكن تفصلنى غير خطوة عن رئاسة التحرير ، ثم جاء السادات فضاع كل شىء وأصبحت المستشار الذى لا يستشيره

أحـــد . ولكن منار لم تكن بهذا الضـعف لتتخلى عنى لذلك السبب . كـانت لهـا مبادىء . المال لم يكن شيئا مهما فى حياتها منذ البدء . حين تزوجنا لم يكن لدينا شىء واستطعنا بفضل منار أن نجتاز الأيام الصعبة التى لم يكن فيها مرتبى ومرتبها يكفيان لكى نعيش ونربى الأولاد . لم تشك قط ولا تغيرت بعد ذلك حين زاد دخلنا وأصبح يزيد على حاجتنا . لم تكن لها مطالب ، بل كنت أنا الذى أحاول أن أعوضها عن أيام الحرمان الطويل . فكيف إذن لم نستطع أن نتجاوز فترة الفشل بعد أن توقف صعودى فى الصحيفة ، بعد أن أخذت أتراجع بسرعة لأقتصر على باب صغير يظهر مرة كل أسبوع فى صفحة داخلية تزحمها الإعلانات ؟ هل كنا نحن أيضا رغم المبادىء والشعارات ، نقدس النجـــاح و(الوصول) مثل كل الآخرين معنا فى الصحيفة وفى خارج الصحيفة ؟ فلتعترف . فلتعترف بأنك وقد ملأتك الهزيمة والغضب أصبحت نافد الصبر ، مستعدا للشجار لأهون سبب مع منار ومع غير منار . فلم لاتكون هى أيضا قد نفد صبرها وامتلأت بخيبة الأمل ؟ .. وهل تراها أدركت أيضا أن خيبة الأمل هذه تعنى أنها تتخلى عنى بينما أحتاج إليها أكثر من أى وقت ؟ ربما، ففى البدء كانت هى التى تبادر الى الخصام وهى التى تبـــادر الى الصلح . وأدرك الآن – أدرك بصـفـاء كامل – أن تشبثى بحلم عبد الناصر أيامها لم يكن مجرد إيمان بالمبدأ الذى عشت مقتنعا به، بل كان أيضا تشبثا بحلمى الشخصى . بأيام النجاح والمجد والوصول . وأفهم الآن أن منار التى جمدوا وضعها فى الصحيفة مثلى وبسببى قد اعتبرت عبد الناصر خصما شخصيا لها . فبعد أن اختزلوا باب المرأة إلى ربع حجمه تذكرت أنه سبب النكسة والمعتقلات وكل تلك الأشياء التى كثر الحديث عنها بعد أن مات . نسيت منار تماما دموعها الغزيرة حين أعلن التنحى بعد الهزيمة وصرختها الملتاعة «هل كانت تنقصنا هذه المصيبة بعد سيناء؟» نسيت فرحتها عندما رجع عن التنحى ونسيت إغماءتها وانهيارها الطويل بعد موته . أصـــبح هجومها على عبد الناصر ودفاعى المستميت عنه حيلة لتنفيس توتراتنا لا أكثر ، وتحول الزعيم إلى مجرد لعبة بيتية قديمة يضرب بها أحدنا الآخر فى المشاجرات

ثم نلقيها جانبا لنعود إليها مرة أخرى بعد حين . وظننت حين ألفت كتابى عن عبد الناصر ونشرته على نفقتى أن ضجة كبيرة ستحدث وأننا سنسترد، هو وأنا بعضا مما فقدناه . رددت بالوثائق وبالأدلة التى عاصرتها على كل التهم التى وجهت إليه ، ولكن الكتاب صدر وصدرت معه الأوامر السرية إلى أكشاك الجرائد والمكتبات بإخفائه فلم يره أحد ، حتى من أهديتهم الكتاب من الزملاء والكتاب الذين تصورت أنهم سيهتمون ، لم يعلقوا عليه . لا هجوم على الكتاب ولا تأييد . بل صمت الموت ، والنسخ البائرة التى عادت لتتكدس فى البيت هى شاهد القبر . وفى تلك الهزيمة الجديدة لم تتعاطف معى منار أبدا كما كانت تفعل من قبل . كانت تشير إلى الكتب المكدسة فى الأركان بتأفف وتقول ستجمع لنا التراب والحشرات . ومع ذلك ، فلنعترف أيضا . لم تكن حكاية الكتاب هى السبب ، ولا كانت السياسة هى السبب . ألا تذكر مرة أننا تعاهدنا على ألا نتكلم عن عبد الناصر أو السادات ولا عن أى شىء آخر نختلف عليه ؟ فما الذى حدث ؟ لم نكن هى أو أنا قد أدركنا بعد أن حديث السياسة لا ذنب له فى الهوة التى انفتحت بيننا ، وأننا حين كففنا عن ذلك الحديث أصبحت المشاحنات تأتى أيضا سريعة وعنيفة دون أن نعرف لماذا . أكون أنا المخطىء أو تكون هى المخطئة ولكن الخلاف الذى ينشأ من نبتة صغيرة معروفة البذرة سرعان ما يتشعب من تلقاء نفسه . سرعان ما تستدعى إهانات الماضى وتقصيراته وعندما قلت أنا ذات يوم وعندما قالت هى ذات مرة ، وعندما كنت أعدها أيام الخطوبة ونحن نمشى على الكورنيش بأننى .. ثم كلام ثم كلام ثم كلام إلى أن نجد نفسينا فى النهاية وسط غابة كثيفة من الأقوال نتخبط وسط أغصانها الجارحة وندمى معا دون أن نعرف طريقة للخروج ، ولم يبق حلٌ سوى أن يخرج أحدنا من الآخر . لماذا ؟ ما السبب ؟ ..

كانت يد تربت على يدى فانتبهت وأنا أقول : لم يكن هذا هو السبب .. !

– السبب فى ماذا ؟

لم أرد . فواصل إبراهيم بصوت خافت : أنا آسف صدقنى لم أكن أعرف أن المسألة مازالت تؤثر فيك إلى هذا الحد .

قلت بنبرة احتجاج : أية مسألة . أنت مخطىء !

فرد ابراهيم بشىء من الارتباك : منذ مدة وأنت شارد ، كنت أيضا تحرك شفتيك و ..

ثم لم يكمل . ولكن غضبا كان يغلى فى داخلى على منار وعلى ابراهيم وعلى العالم كله فقلت :

– اسمع يا إبراهيم ، فلنفقأ هذا الدمل ولننته منه !

بدت فى وجهه حيرة وهو يقول : عن أى شىء تتكلم ؟

– حكاية وقفك عن العمل ! .. نعم! أنا الذى طلبت ذلك بحكم مسئوليتى !

فقال إبراهيم وهو يواصل الربت على يدى : إنس ذلك . أنا نسيته، ألم أقل لك محا الموت أسباب ..

ولكنى أبعدت يده بنوع من العنف قائلا : ولكن أنا لم أنس . سأقول لك أسرارا لم تعرفها ..

احتقن وجه ابراهيم ولوح بيده نافد الصبر وهو يقول : أى أسرار تريد أن تشرحها لى فى سنة ٨٢ عن أشياء حدثت فى سنة ٦٩ ؟ ما أهمية ذلك الآن ؟ قلت لك إنى نسيت هذه الحكاية ..

– ومع ذلك فيجب أن تعرف أن هذا المقال الذى كتبته عن بيان ٣٠ مارس وقلت فيه إن الحكومة تتصور أن اليمين يمكن أن يخلص للثورة وأنّه ممكن أن ينفذ الإصلاحات ..

قاطعنى إبراهيم بشىء من التأفف : قلت لك هذه أشياء انتهت ! بيان ٣٠ مارس حقا !! انزل الآن يا صديقى إلى أى شارع فى القاهرة واسأل الناس عن بيان ٣٠ مارس . إن وجدت فى مصر كلها عشرة أشخاص يذكرون ماهو هذا البيان فتعال نتحاسب ! .. ثم بدا أنه يبذل مجهودا لكى يبتسم وهو يقول : ياسيدى أين نحن من تلك الأيام ! ارجع لنا هذا الزمن ثم أوقفنى عن الكتابة كما تشاء . هل يرضيك أن أقول إننى أخطأت حين كتبت هذا المقال ؟ .. كان معك حق فى كل ما قلته عن عبد الناصر أيامها وكنت أنا المخطىء ..

ثم تذكر شيئا فاتسعت ابتسامته وهو يقول : وبالمناسبة هل تعرف لقبك الآن في القاهرة ؟ وصل إلينا في بيروت أنهم يسمونك في مصر منذ كتابك عن عبد الناصر أرملة الفقيد ..

تظاهرت بالابتسام وقلت : نعم ، سمعت اللقب . ولكن أنت على الأقل تعرف أنني كنت أدافع عن عبد الناصر قبل أن يموت وبعد أن مات . لم أغير موقفي وكنت معه عن عقيدة ..

فقال إبراهيم وهو يحول وجهه عني من جديد . نعم ولكن هذا لم يمنع أبدا أنك كنت في عهده ترتقي في الصحيفة كالصاروخ وتسافر في كل المهام الصحفية للخارج أيام كان السفر للخارج أصعب من السفر للقمر ..

قلت منتفضا: ماذا ؟ .. هل رقيت إذن لأنني كنت أنافق أو لأني كنت محسوبا على أحد ؟

- لا أقصد هذا .

- إذن فماذا تقصد ؟ .. كنت أظن أنني صحفي أعرف كيف أكتب .. كنت أظن أيضا أني أول صحفي دخل بورسعيد سنة ٥٦ والقنابل تسقط فوقها وأنني لم أكتب عن حرب اليمن من مكتبي ، بل كنت مع الجنود في الجبال . ولكن هذا كله لا أهمية له الآن بطبيعة الحال ..

رفع إبراهيم يده أمام وجهي وهو يقول : لا أشك في أنك كنت تكتب عن اقتناع المسألة هي ..

ولكني لم أكن أسيطر على نفسي . كنت أرتعد وأنا أتكلم : قل لي من فضلك ما تعنيه بهذا الكلام . ألم يغير كثير من الصحفيين جلودهم لكي يبقوا في مناصبهم ؟ .. ألم يتسابقوا على لعن سياسته التي كانوا يسبحون بها لمجرد إرضاء السادات ؟ .. هل فعلت مثلهم أنا ؟

- بالطبع لا . أنا آسف حقيقة . قلت لك لم أقصد أن ..

- لا ، بل تقصد ! ثم ماذا حدث أيام سيطرت أنت وأصدقاؤك على الثقافة في البلد ؟ .. ألم تفصلوني أيامها من لجنة الثقافة الجماهيرية ؟

- من فعل ذلك من فضلك ؟

- أنتم: الشيوعيون .

- هذه أوهام !

كنت أعرف أن صوتى قد ارتفع وأن عيونا ترمقنى فى المقهى ولكنى لم أبال :

- بل هى حقائق . كنت أحب الرجل وما زلت أحبه . أراد أن يغير الحياة فى بلادنا فحاربتموه أنتم وغيركم .

ضرب إبراهيم كفا بكف واحتد أيضا وهو يقول : لا ! هذا يزيد على الحد ! كيف حاربناه نحن وأين حاربناه ؟ فى معتقل الواحات أو فى معتقل القناطر ؟ أو ربما نكون نحن الذين حاربناه فى اليمن وسيناء دون أن أدرى ! .. انظر إلى الأمور كما هى ياصديقى . لم نكن نحن أبدا السبب فيما حدث . بل ها نحن ندافع عنه الآن رغم كل ماجرى لنا ..

- بعد أن ضاعت الفرصة ..

- ومن الذى ضيعها ؟ولكن قبل أن أرد مد إبراهيم يده فى وجهى بسرعة وقال: اسمع . هل يمكن أن نوقف هذا النقاش ؟ .. اعتذرت لك وها أنا أعتذر مرة أخرى . سامحنى إن كنت قد جرحتك . أعترف أنى أخطأت .. ثم أخذ يدق على المنضدة بسبابته وهو يقول : كل ذلك ماض . ماض بعيد . ماض ميت . ألا تفهم ؟

لاحظت أمامى فنجانا من القهوة فمددت له يدا مرتعشة وحين أخذت منه رشفة وجدته باردا . ركزت عينى فى النهر ومرت فترة طويلة لم أكن أرى فيها شيئا ولكنى أفقت على حركة فوق السطح الساكن وضجيج . كانت هناك بجعة ترتكز على ذيلها وتشب بجسدها تكنس بجناحيها الأمواج بسرعة مخلفة وراءها خطين متوازيين من الزبد الأبيض . وذعرت بطات رمادية صغيرة كانت تسبح متراصة خلف أمها فاندفعت نحو الحاجز الصخرى أسفل النافذة وهى تصيح بأصواتها الرفيعة وتهز ذيولها التى لم ينبت فيها الريش بعد . أما البجعة فسكنت أخيرا وراحت تنزلق فوق الماء بجلال وهى تتلفت ببطء نحو اليمين واليسار .

رشفت بقية فنجان القهوة البارد فى جرعة واحدة وقلت أقطع الصمت :

- اسمع يا ابراهيم . أنا أيضا آسف وأرجوك أن تسامحنى . لم يكن هناك معنى لما حدث الآن وأنت هنا ضيفى .. لم تقل لى أولا لماذا جئت إلى هذا البلد ؟

- أكتب موضوعا للجريدة التى أعمل فيها و ..

ثم سكت لحظة قبل أن يكمل : وبالمناسبة أشكرك لأنك لم تفعل مثل أصدقائى المصريين الذين يقابلوننى فى الخارج فيسألوننى بلهفة واهتمام كيف الحال فى بيروت ؟ .. كأنهم لايقرءون فى الصحف ما يكفيهم .

- ربما كنت أنا أيضا سأسألك لولا هذا التنبيه ، مع أن شاعرا كبيرا أخبرنا منذ وقت طويل بما يحدث الآن فى لبنان ..

قال إبراهيم باستغراب : شاعر ؟

- نعم ، أخبرنا منذ سنين بما يجرى الآن حين قال : نحن من بيروت مأساة ولدنا بوجوه وعقول مستعارة ..

تولد الفكرة فى السوق بغيا ثم تقضى العمر فى لفق البكارة .

كرر ابراهيم : تقضى العمر فى لفق البكارة .. ما أصدقها من صورة ! .. كل الأفكار العاهرة تسمى نفسها الآن مبادىء وتزنى بالحقيقة . (ثم رفع إصبعه منبها وهو يقول) ولكن ليس فى بيروت وحدها . من هو هذا الشاعر ؟

- خليل حاوى .

قطب حاجبيه قائلا : لا أعرفه . هل هو قريب جورج حاوى ؟

- كيف أدرى ؟ .. كل ما أعرفه أنه شاعر وأنى أحبه .

وخطر لى أننا فى الماضى كنا نعرف رجال السياسة بفضل الشعراء . عرفنا سيف الدولة وكافور بسبب المتنبى .. لا العكس - ولكننا نريد اليوم أن نعرف الشاعر بالسياسى .

نقتل شعراءنا بالصمت ونقتلهم بالنسيان . وأردت أن أسأل إبراهيم : إن صح أن الشعراء هم ضمير الأمة ، فما مصير الأمة التى تنسى شعراءها ؟ ..

غير أنى بدلا من ذلك نظرت فى ساعتى وقلت :

- ولكن هناك الآن سؤالا مهماً آخر لم نسأله . كيف سنأكل ؟ تجاوزت الساعة

الثانية ومعنى هذا أنهم أغلقوا المطبخ هنا وفى كل مطعم آخر فى البلد .

هز إبراهيم رأسه قائلا : ولكنك لم تفكر .. أقصد أننا لم نفكر فى السؤال المهم فى الوقت المناسب !

طلبنا شطائر خفيفة وأنواعا من الحلوى التى يقدمونها فى ذلك المقهى ووعدت إبراهيم بأن نعوض ذلك بوجبة دسمة فى العشاء ، ورحنا نتكلم ونحن نأكل عن زملائنا فى الصحيفة وعما حدث لهم خلال تلك السنين المليئة بالتقلبات . نتحدث عمن صعد نجمهم على غير توقع وعمن أبعدوا دون إنذار تطبيقا لسياسة السادات فى الصدمات الكهربائية . وسألنى إبراهيم : ولكن كيف جئت أنت بالذات إلى هذا البلد ؟

قلت ضاحكا: أظن أن السبب هو مكتبى .

قال إبراهيم فى دهشة : أى مكتب ؟

أشرت بيدى فى حركة دائرية تصور مكانا وأكملت :

ـ المكتب . الغرفة التى أجلس فيها فى الصحيفة . كان مكتبا كبيرا كما يليق بنائب رئيس تحرير ، وكان هناك كثير ممن ارتقوا يطمعون فيه ولكنى كنت هناك كالهم على القلب ولم يعرفوا كيف يطردوننى منه . أظن أن إبعادى كان مقررا من أول يوم فى انقلاب السادات غير أنهم فوجئوا بأن اسمى لم يكن فى قائمة التنظيم السرى للاتحاد الاشتراكى ولا فى أية قوائم أخرى . وكنت أيامها عضوا منتخبا فى مجلس النقابة فتحملونى على مضض . رقونى إلى مستشار للتحرير لكى لا أفعل شيئا ولكنى ظللت رازحا فى مكانى . ولما فتحوا مكتبا للصحيفة هنا كان ذلك يناسبنى أيضا .

ولم أقل لابراهيم أننى رحبت بذلك الابعاد لكى أهرب من مصر كلها بعد الطلاق .

ولكن طوال حديثنا عن الصحيفة وعن زملاء العمل كنت أفكر فى شادية فى ذلك اللغز الذى لم افهمه أنا ولا غيرى طوال تلك السنوات ، شادية ، الرشيقة الجميلة ، أجمل زميلاتنا من المحررات أيام بدأنا العمل . أحبت ابراهيم وأحبها

وكنت أقول لنفسى هذا هو الانتخاب الطبيعى لان ابراهيم كان جذاباً ايضا بجسده الرياضى الفارع وعينيه البنيتين النفاذتين ، تلفت وسامته النظر على الفور وإن لم يعن بملابسه أبدا على أساس أن الأناقة من قبيل البرجوازية الفارغة ! ظلت شادية وفية له فى سنوات الاعتقال وصدت محاولات كثيرة للتقرب منها ، بل قبلت الاضطهاد الذى اصابها فى الصحيفة باعتبارها صديقة لأحد «أعداء الثورة» كما كان يقال أيامها . ولكن فور خروج ابراهيم من المعتقل انقطعت العلاقة بينهما وتوسطت أنا أيامها مع من توسطوا من الزملاء للصلح غير أننا لم نفلح ولم تعط هى أو إبراهيم أى تفسير لما حدث . ثم فاجأتنا شادية بأن تزوجت بعد ذلك بقليل من صراف الصحيفة الذى كنا نسميه «عم عبد اللطيف» بسبب وقاره المبالغ فيه وبطء حركاته وإشاراته . وأنجبت شادية طفلها الأول بعد سنة بالضبط ثم أدهشتنا مرة أخرى حين طلبت نقلها من التحرير الى الإدارة وعملت موظفة فى قسم الحسابات . بعدها تلاشت شادية التى نعرفها . ترهلت ولم تعد تهتم بمظهرها بالمرة . كانت تلبس باستمرار فوق فستانها فى الصيف والشتاء شيئا يشبه المعطف واسع الكمين وبدون أزرار ، وهى تربط شعرها بإيشارب وتكرر للزملاء بضحكة سعيدة أنها تفعل ذلك لأن «سى عبد اللطيف» يغار عليها جدا . أراها تتنقل بين المكاتب وهى حامل أو منتفخة البطن كالحامل، تقف فترة على باب كل مكتب تسأل عن أخبار المحررين والموظفين فى الصحيفة وتنقل الأخبار من مكتب الى آخر لأنها كما تقول وسط الضحكة المجلجلة التى تعلمتها «تموت فى النميمة» . ولم أكن أصدق نفسى أن هذه هى شادية . هى نفسها تلك المحررة التى كانت تجلس إلى مكتبها هادئة معظم الوقت ولكنها تشتعل بالانفعال والحماس وهى تتحدث عن حركة للتحرير فى أفريقيا أو عن تطور الهجرة الى اسرائيل أو عن معجزة الاقتصاد فى اليابان . بدا أنها نسيت هذه الأشياء تماما وظللت أتساءل إن كانت هزيمة فى الحب يمكن أن تفعل ذلك بالانسان ؟

لم أطرح هذا السؤال أبدا على إبراهيم ولكننا ونحن نجلس الآن فى المقهى فى تلك المدينة الأجنبية نحتسى القهوة صامتين بعد وجبتنا الخفيفة وبعد أن أبدى

رغبته فى أن نبقى فترة أخرى فى ذلك المكان ، لم أستطع أن أمنع نفسى .

قلت لإبراهيم وكأنى تذكرت شيئا : بالمناسبة وما دمت قد سألتنى عن منار فسأسألك أنا أيضا سؤالا حيرنى كثيرا ، لماذا انفصلتما أنت وشادية ؟ لماذا تركتها أو لماذا تركتك هى ؟

قال ابراهيم دون أن يحول وجهه عن النافذة : وأنا سأرد عليك كما رددت أنت. أتظن أن معرفة ذلك تفيد الآن بشىء ؟

ثم التفت نحوى مكملا : ومع ذلك فإن لى صديقا يقول يجب ألا يخفى الانسان شيئا بعد سن الخمسين . لا معنى بعد ذلك للاسرار ولا لاخفاء أى شىء . نعم ، كنت أحبها حقا ، ولم أحب فى حياتى واحدة مثلما أحببتها . ولما طالت سنوات الاعتقال كتبت لها من السجن أنى أحررها من الارتباط بى . وإلى هنا فلم يكن هناك بأس ، ولكنى .. «بدا على ابراهيم التردد لثوان ولكنه اندفع يكمل» كتبت لها أيضا أنها إن ارادت انتظارى فهى حرة فى أن تسلى نفسها بالخروج مع من تشاء من الرجال ..

قلت مبهوتا : لا يقول الرجل شيئا مثل هذا لامرأة فى بلدنا يا ابراهيم .

- ولا فى أى بلد آخر ياصديقى . ولكن هذا هو ماحدث . لو سألتنى الآن لماذا كتبت تلك العبارة المشئومة فسأرد عليك بأنى لا أعرف . هل كنت أريد بالفعل أن أحررها من الارتباط بشخص لا مستقبل له ؟ ربما . وربما كان هناك سبب آخر، يتغير الانسان فى السجن . العواطف المشبوبة فى خارجه تنطفىء داخل أسواره . كانت رسائلها إلى ، على قصرها ، ملتهبة بالحب والشوق ، وكانت السطور التى أكتبها إليها خابية كالرماد ، فاترة كأداء واجب ثقيل. لابد أنها فهمت بالتدريج أن حبى لها قد مات . كانت شجاعة وأصيلة حين ظلت متمسكة بى كل هذه السنين . ربما راودها الأمل أيضا فى أن الأمور ستتغير بعد الخروج من السجن لكنها بعد الغفران وبعد الانتظار الطويل رأت شخصا آخر غير حبيبها القديم . رأت بالفعل كاتب تلك السطور الفاترة . وكان عبد اللطيف هناك . كانت تشعر بحبه المكتوم لها مثلما تشعر بذلك كل امرأة . وكانت تعرف أن الصراف لا يحلم مجرد حلم أن

تبادله المحررة الموهوبة حبه . ظلت بالنسبة له معبودة عصية أبعد من النجوم ، أظن أن هذا العشق العابد هو ماكانت تحتاج إليه وقتها ، هو ما كانت مستعدة لأن تضحى من أجله بكل شيء ..

لعلها لو انتظرت قليلا ..

ولم يكمل ابراهيم ما كان يفكر فيه .

غمغمت قائلا : نعم ، لماذا ندمر أنفسنا بأيدينا ؟

لم يبد أنه سمعني ، كان وجهه الآن يكسوه حزن عميق ولكنه هز رأسه وحاول أن يتكلم بنوع من الاستخفاف وهو يقول : ولماذا تسألنى عن شادية وحدها ؟ ما حدث معها تكرر مع غيرها. لم أنجح فى الارتباط بأية امرأة . عرفت فى حياتى بعضا من النساء وحين كنت أعرف فتاة متحررة ومثقفة كنت أجد نفسى دون أن أدرى أشعر بحنين للسذاجة والبراءة ، وحين التقى بفتاة بسيطة ينتابنى بعد فترة الضيق وعدم الاقتناع ، أجد أنى أحتاج أيضا إلى عقل أتحاور معه ، وهكذا .. أظن أنى ضيعت عمرى أبحث عن واحدة تجمع بين كل المتناقضات ولم تخلق بعد ..

- أو ربما كان يلزمك شيء من التواضع .

- ربما ، ولكن الوقت فات على كل حال . فى سنى الآن لم تعد المرأة تشغلنى كثيرا ، سيكون أفضل من هذا أن نتحدث عن أشياء تفيد فى العمل . سأبقى هنا أياما قليلة وأمامى عمل يمكن أن تساعدنى فيه .

انحنيت فى اتجاهه وأنا أخفض صوتى : إذن سأحدثك عن أول شيء يفيدك فى العمل ولن نبعد كثيرا عن الموضوع .. هل ترى هذه الفتاة هناك ، التى تجلس عند النافذة تقرأ فى كتاب ؟

نظر إبراهيم نحوها وكانت تعبث بخصلة من شعرها الأشقر القصير وهى منهمكة تماما فى القراءة ، وتبدو مثل طالبة تلبس بنطلونا من (الجينز) وحذاء من المطاط .

حول إبراهيم عينيه عنها وقال بلا مبالاة : هى صغيرة جدا وقد قلت لك إنى لم

أعد مهتما بالنساء ..

- ولكن صدقنى إنها هى مهتمة بك جدا . لاحظتها تجلس فى صالة الفندق الذى كان فيه المؤتمر بهذا الانهماك نفسه فى القراءة .

- ولكن لماذا ؟ .. ثم استدرك فجأة وهو يضحك : غير معقول ! حتى .. هنا ؟

- وبالذات هنا ! أتظن أنك تأتى مندوبا لصحيفة فلسطينية ، ويسارية أيضا ، ثم تتركك الديمقراطية تغيب عن عينيها ؟

قال إبراهيم وهو مستمر فى الضحك : وهل يتابعونك أنت أيضا ؟

- لا ، أنا صحفى من بلد مسالم ووديع .

ألقى إبراهيم على الفتاة نظرة عابرة أخرى ثم هز كتفيه باستهانة وهو يقول : هذا شىء تعودنا عليه فى كل بلد ، وبما أننى لا أفعل شيئا غير أن أكتب فهو لا يعنينى. الأفضل أن تحدثنى عن شىء آخر ، ماذا عن البلد والناس هنا مثلا ؟

أردت التهرب لكى لا نختلف مرة أخرى فقلت له إننى لا أعرف كثيرا من الناس هنا لأنهم لا يحبون الأجانب ولا يختلطون بهم . فردّ بيقينه القديم الذى لا يتزعزع أنت لاتختلط بالشعب . لو عرفت بعض اليساريين مثلا لرأيت صورة مختلفة من الحياة . ورفض أن يصدقنى حين قلت له إننى لا أرى فرقا هنا بين يسار ويمين وإنهما عندما يتوليان الحكم يتساويان على الأقل فى استغلال بلاد عالمنا الفقير ، ويبتزوننا بالديون . كان إبراهيم يهز رأسه مستنكرا ويكرر اننى أعيش فى أوروبا دون أن أراها ، وانها مازالت رغم كل شىء هى الأمل فى المستقبل ..

وواصل إبراهيم بانفعال : أنا لا أتكلم حتى عن العلم أو عن الحضارة بل عن الانسانية ذاتها يا صديقى . قل لى من فضلك كم طبيبا عندنا فى مثل سن الدكتور مولر أو أصغر منه يتطوعون للدفاع عن المظلومين فى العالم أو حتى فى بلدهم نفسه ؟ أو كم مهندسا أو كم قانونيا أو صحفيا ؟ .. سأقول لك شيئا .. فى المستشفيات وفى المخيمات فى بيروت رأيت ممرضات متطوعات من السويد ومن هولندا ومن انجلترا ومن بلاد أخرى كثيرة فى أوروبا . يعرفن ما الذى ينتظرهن

وسط الحرب الأهلية والقتل المجنون . واحدة منهن لابد أنك قرأت عنها فقدت أطرافها برصاص الكتائب فى تل الزعتر ، لكن زميلاتها بقين هناك ..

- ولكن لابد أنه توجد ممرضات عربيات أكثر منهن ...

أطرق إبراهيم برأسه وقال : نعم ، ويوجد أيضا صحفيون عرب مثلى ذهبوا لأنهم يؤمنون أن القضية قضيتهم ، فلا فضل لهم إذن إن ذهبوا .. نحن ذهبنا ندافع عن أنفسنا لاغير ، والبعض منا أيضا موظفون يتقاضون أجرا . ولكنى لا أتكلم عن ذلك ، أنا أتكلم عمن يتطوع . عمن يعطى من نفسه للآخرين ، بالفعل لا بالكلام العالى الصوت . أتحدث إن شئت عن الإنسانية التي لا تراها أنت هنا وأراها أنا هناك كل يوم . نعم أعرف من العرب عشرة أطباء متطوعين أو عشرين أو ثلاثين . مائة فدائى أو مائتين أو ألفا . ولكن هل هذه ياصديقى هى العروبة التى عشت تحلم بها ؟ .

زفرت وأنا أقول : عندى من الهموم ما فيه الكفاية.يا إبراهيم فأرجوك أن تسكت .إذا سألتنى أين هم العرب فسوف أسألك أنا وأين هم عمال العالم الذين اتحدوا ؟ لا تدعنا نختلف مرة أخرى .

ثم قلت لكى أغير الحديث : ولكن جاءتنى فكرة بعدما قلت ، هى أن نتبادل أماكننا تأتى أنت هنا لتعيش فى أوروبا مع اليسار الذى تحبه وأذهب أنا إلى بيروت ..

فقال مقطبا : ولماذا لم تفعل ذلك من الأصل ؟ .. أنا لا أريد أن أعيش هنا ؟ ولكن لماذا لا تأتى أنت إلى بيروت ؟ ..

- لم تكن أمامى فرصة للاختيار . تعرف أن صحيفتنا ليس لها مكاتب فى أى بلد عربى منذ الصلح . وأنا أحتاج للمرتب لكى أربى الأولاد ، ليس لدى أى دخل آخر .

ولكنى شعرت بأن إبراهيم لا يتابعنى. كان ينظر الى ركن معين فى المقهى وقال :

- إن كنت حقيقة لاتعرف أحدا فى هذا البلد فسأعرفك أنا على أجمل واحدة فيه ..

تابعت اتجاه عينيه فوجدت بريجيت والدكتور مولر يجلسان الى منضدة قرب المدخل .

حولت بصرى عنهما قائلا : أنت من المؤكد لا تعنى ما تقول ! .. دعها فى حالها يا إبراهيم. يكفى ما جرى لها من تلك الترجمة التعيسة .

فنهض وهو يقول : معذرة إن لم يكن عندى وقت لمثل هذه الحساسية . أنا صحفى لدى عمل هنا وأريد أن أتكلم مع مولر ومع هذه الجميلة ...

عندما كان إبراهيم يتجه إلى حيث تجلس بريجيت ومولر ، تابعته (الطالبة) بعينيها دون أن ترفع رأسها من الكتاب . وحولت أنا نظرى نحو النافذة . كانت هناك سحب خفيفة تنتشر فى السماء تغطى قرص الشمس وإن لم تحجبه ولكن مياه النهر فقدت التماعها وبدا سطحها المتموج بلون الزئبق وهجع البجع والبط قرب الشط ، غمر المكان كله سكون غريب لكنه لم يغمرنى .

أخذت كل الأشياء التي تحاورت فيها مع إبراهيم تتداخل ، لا تفسر شيئا ولا تضيء شيئا ولكنها تتقاطع وتتكاثف وتنتهى الى طرق مسدودة . بعثنا الماضى فإذا كل الألغاز حية مثلما كانت فى الأمس البعيد . هل عرفت مثلا لماذا انفصل هو عن شادية ؟ ليكن أنه قد فعل ما فعل فلماذا لم يشرح لها بعد خروجه من المعتقل أنه لم يكن يقصد إهانتها ؟ .. لماذا لم يشرح لها ولماذا لم تغفر له؟ ولماذا كان يجب أن تدمر نفسها بعد ذلك ؟ أين هو العطب الذى ينهشنا ويسبب الدمار ؟ ولماذا فسدت الأمور بينى وبين منار ؟ أعنى الحقيقة ولا أعنى تلك التفاصيل التى تحدث آلاف المرات كل يوم بين الأزواج ، أذكر جيدا تلك الصحراء من الصمت التى عشت فيها مع منار شهورا وشهورا قبل الطلاق . نتجنب أن تلتقى عيوننا ونهرب أن يجمعنا مكان واحد مع خالد وهنادى . كنا محاربين استسلما للعدو لايجرؤ أحدهما أن يرفع عينه فى وجه الآخر من الخزى . ولكن من كان العدو ؟ .. ما الذى اكتشفته فى أو الذى اكتشفته أنا فيها ؟ .. أراها الآن فى ليلة بعيدة أبعد حتى من صدور كتابى الميت . كنا مدعوين إلى العشاء عند أحد الأصدقاء .

وقفت أنتظرها وهى تتزين أمام المرآة . بعد أن انتهت تحسست بيدها العقد الذى ينتهى بقلب ذهبى ، وكان هدية قديمة عدت بها مرة من أحد الأسفار . قالت متبرمة أظن أن كل صاحباتى سئمن من رؤيتى بهذا العقد . كل واحدة عندها أطقم من المجوهرات تناسب أزياءها وأنا لاشىء عندى غير هذا العقد . أفلتت منى العبارة دون قصد وأنا أزفر : لم ينج من هذا الانفتاح أحد .. هل تعمدت هى أن تتحدث عن العقد أو هل تعمدت أنا أن أذكر الانفتاح ؟ لا أظن . ولكنها التفتت نحوى فجأة بعينين محتقنتين وقالت بصوت خافت وشفتين مرتعشتين لاتتكلم عن الانفتاح من فضلك ولا تتخذ هذه المواقف السامية . أنت .. أنت شخصيا أول الانفتاحيين ومن قبل أى انفتاح . لم أكن أنا التى طلبت السيارة المرسيدس ولا هذه الشقة فى جاردن سيتى . كنت قانعة ببيتنا الصغير فى الجيزة ولم أطلب شيئا . قلت ولكنى كنت أحاول أن أسعدك يا منار أنت والأولاد . تعرفين أنى دفعت كل ما أملك من أجل السيارة والشقة . هل سرقت لكى أفعل هذا ؟ .. تكلمت وجسدها كله ينتفض لا ، لم تسرق . فقط كنت تدخر العملات الصعبة وأنت فى مهامك الصحفية الثورية ثم تعود لكى تغيرها فى السوق السوداء وتشترى وتشترى . قلت لم أفعل سوى ما كان يفعله غيرى ، فصرخت وهى تنزع العقد من رقبتها إذن لا تعطنى دروسا عن الانفتاح ولا عن غيره . لا تعطنى دروسا من فضلك . استبد بى الغضب وأنا أقول لها لم ألاحظ مع ذلك أنك ترفضين شيئا مما أشتريه ، لماذا قبلت السيارة والشقة دون أن أسمع منك كلمة ؟ .. فقالت وهى تلوح بسبابتها فى وجهى مع كل كلمة : أنا لم أطلب شيئا . وأنا لم أقل إنى ثورية . وأنا لم أحك قصصا عن فقرى فى القرية وعن عذاب الفلاحين وعن العدل الذى ستأتى به الثورة .. ثم ازدادت اقترابا منى وهى تقول : وأنا لم أهاجم الانفتاح ! رددت عليها .. بماذا رددت ؟ لا يهم . لا يهم . ولكن هل كان ذلك إنذارا بأنها قد تحررت من شىء ما ؟ .. ربما فبعد ذلك بقليل بدأت منار مشاريعها الخاصة ، بدأت تدخر لحسابها وبدأت تشترى الفضة من خان الخليلى ثم تعيد بيعها عندما ترتفع الأسعار . وقالت لى ذات يوم بطريقة عابرة إنها

اشترت (ربع تاكسى) وكانت تلك أول مرة أعرف فيها أن الانسان يمكن أن يشترى كسور التاكسى . وذلك قبل أن يصبح التاكسى كله ملكها وقبل أن تشترى من النقابة بالتقسيط قطعة من الأراضى التى أعلنوا عنها فى الغردقة وقطعة أخرى فى الهرم . . .

ولكن مرة أخرى على أى شىء تلومها ؟ لم تبتذل منار نفسها أبدا وهى تفعل ذلك. ألا تذكر أيامها زميلات محترمات كن يبعن فى مكاتب الصحيفة ذاتها الملابس المستوردة والنظارات والأدوات الكهربائية وزملاء محترمين كانوا يعملون بتجارة «الشنطة» بين القاهرة وبيروت؟ على أى شىء تلومها ؟ .. لا ألومها ولكنى أسأل : كيف وصلت الى ذلك وهى التى لم تهتم عمرها كله بالمال ولا بالاقتناء ؟ .. هل كانت تنتقم منى ؟ .. ولماذا ؟ .. أنت الذى قدمت لها المبرر على أية حال . لم تفعل سوى ما كان يفعله غيرها ولم تفعل أنت سوى ما كان يفعله غيرك . كنت أنت أيضا تشترى وتشترى .. لماذا ؟ .. ومتى بدأت الكلمات تصبح مجرد كلمات ؟ الثورة والعروبة والاشتراكية والعدل ؟ .. كلمات للمقالات والندوات ولكنها ليست للحياة ! لم أفعل سوى ما كان يفعله غيرى ! ..أن نقنع الآخرين بكلماتنا .. بالعدل والمساواة والثورة والتضحية، ولكننا نعيش مع ذلك كله فى درجة أرفع . فى رفاهية أكثر لكى يواتينا الإلهام ! لم أر ولم ير غيرى أى تناقض فى ذلك كله . ولكن منار كانت ترقبنى وفى عينيها الإدانة حين التقى بأصحابى ونطلق الكلمات الرنانة .. أرأيت ؟ .. الانتفاضة ! ١٨ ، ١٩ يناير .. الشعب يتحرك .. النهاية تقترب! أرأيت؟ الشاه والسادات فى أسوان ، تصور ؟ .. مصر تريد أن تدفن النفايات الذرية لأوروبا فى الصحراء ! تصور ! كلمات وكلمات وكلمات نقولها ونحن نتحسس ربطات العنق الغالية ونتلفت حولنا وكأن الجواسيس يسجلون كل كلمة نقولها . وكأن كل كلمة ستهد الحكم ! .. ماذا لو أننا بالفعل قد عشنا الثورة التى نتكلم عنها ؟ .. لو أنا قد عدنا لقرانا أو لأحيائنا الفقيرة نعيش مع أهلنا دون خطب ودون شعارات ؟ .. هل كان كل شىء سيموت بالفعل؟ .. وماذا فعلنا ليلة زيارة القدس ؟ .. اعتبرنا أننا أدينا كل ما علينا حين اجتمعنا فى المقهى وتناقشنا

وصرخنا وبكينا . طظ! طظ! ما علاقة هذا حقيقة بالثورة ؟ .. وما فائدة تلك الأفكار الآن ؟ وما علاقة هذا الأفندى الجالس على المقهى المطل على النهر والجبل الأوروبى الأخضر بذلك الطفل الفقير الجائع الذى كان يمشى ساعتين كل يوم بحذاء ممزق ، يمشى فى التراب وفى الطين وفى الحر وفى البرد لكى يذهب الى المدرسة وهو يحلم طول الطريق بالجنة لأن فيها الكثير جدا من الأكل ؟ .. وما معنى أن استمر فى هذه الحياة الكذبة ؟ .. من أكون .. ولم لا أنزل الآن فى جوف النهر . أرقب من قلب الماء بطون ذلك البجع الأبيض الرجراجة وأصلى أن يحملنى التيار بعيدا جدا ، بعيدا عن البجع وعن البط وعن الأشجار والجبال وعن البشر - بعيدا إلى فجوة مدفونة وسط الصخور أندس فيها وأنزوى ثم تغمرنى الطحالب والنباتات والقواقع والأسماك وتخفينى إلى الأبد ؟

لو أنى فقط أتلاشى !

الفصــــل الثــــالث

هذا المساء أريد أن أتكلم

ربت ابراهيم على يدى فأجفلت .

قال: ماذا بك ؟

أجبت بدون وعى: أنا خائف !

ضحك إبراهيم وقد ظننى أمزح وقال: إذن لا تبق وحدك. تعال، انضم إلينا . طلب الدكتور مولر أن أدعوك .

عرفنى إبراهيم على مولر وبريجيت بكلمات سريعة وتبادلنا بعض عبارات عن عملى وعن الحياة فى تلك المدينة ورأيى فيها . وكنت أحاول التركيز وأنا أجيب ولكن اللغة الانجليزية عصتنى مثلما تعصانى عندما أكون شاردا ومتعبا فآثرت الصمت.

اتجه ابراهيم نحو مولر يستأنف حديثاً بدأه من قبل : معى بالطبع مستندات عن حالات محددة يمكن أن أعرضها عليك ..

وبينما كان إبراهيم يفتح حقيبة يده الصغيرة ليخرج بعض الأوراق شرح لى بطريقة عابرة: هذه حالات عن بعض الفلسطينيين واللبنانيين الذين تخطفهم دوريات إسرائيل من جنوب لبنان بمساعدة جيش سعد حداد ...

وعندما أخرج أوراقه راح يصنفها قبل أن يقدمها إلى مولر وهو يقول : بعض هؤلاء المختطفين عذبوا فى إسرائيل وبعضهم اختفوا إلى الأبد. رفع مولر عينيه عن الأوراق بعد أن تصفحها وقال وهو يهز رأسه : نعم، هذه حالات تدخل ضمن اختصاصنا ولكن من بعيد. ألا يمكن أن تقدم هذه الأوراق إلى منظمة العفو؟.. صوتها مسموع أكثر منا..

رد إبراهيم : نحن قدمناها بالفعل الى منظمة العفو . ولكن شهادتكم كأطباء عن حالات التعذيب بالذات ..

ولم أعد أتابع الحوار. كنا نجلس إلى منضدة بعيدة عن النافذة فاختفى عن عينيّ النهر ولكني رحت أتطلع باستغراق إلى السماء وإلى الجبل البعيد.. ماالذى ذكرني الآن بهذا الطفل؟.. ماالذى فتح كل هذه الجروح ؟ أم أنها مفتوحة دائما وكل مافي الأمر أنني أتلهى عنها في بعض الأحيان؟.. وماذا عن هذا الجرح الآخر الذي لاينسى أبدا ولا يفلح أى شيء في أن يلهيني عنه :إنني أنا أيضا، صنعت شقاء لطفلين هما كل عالمي ، أو كانا كل عالمي ؟ .. بم ينفع في هذا أى تبرير أيها الهارب؟.. وهل يعذبك هذا حقا كما ينبغي أم أنك مازلت مشغولا بنفسك قبل كل شيء؟ بطفلك المقهور في داخلك منذ أكثر من أربعين عاما أو ربما خمسين عاما؟.. لو أنني فقط أعرف أين هى الغلطة الحقيقية أو متى بدأت؟

مالت بريجيت نحوى وقالت بصوت خافت: فيم تفكر ؟

فقلت دون تدبر – في أن هذه الحياة كذبة..

تراجعت إلى الخلف وهى تقول بدهشة خفيفة : لم أكن أظن أن هذه هى المشكلة . كنت.. أظنها حقيقية أكثر من اللازم .

ثم عدنا نلزم الصمت. راحت تدخن وتجيل عينيها بين مولر وإبراهيم المنهمكين في الحوار. ولاحظت أن التعبير الذى بدا في وجهها في آخر ذلك المؤتمر الصحفي مع الفريدو إيبانيز مازال باقيا في عينيها الواسعتين . كانت حدقتاها الزرقاوان تتحركان بسرعة وجفناها يختلجان باستمرار وهى تحاول أن تتغلب على هذا بالاستغراق في التدخين وببسمة ثابتة على شفتيها . واكتشفت وأنا أنظر إليها عن قرب لأول مرة أن ملامحها كبيرة إلى حد ما. كان أنفها طويلا وبارزا وفمها واسعا قليلا ولكن كل شيء في وجهها يبدو مع ذلك متناسقاً وجميلا بجبهتها العريضة وشعرها الذهبى اللامع الكثيف الذى كان مفروقا في منتصفه وقد صنعت منه ضفيرة طويلة تلتف في دائرة مستوية خلف رأسها ويبرز تحتها

عنقها الأبيض العالى. واكتشفت ايضا وأنا اتطلع اليها أن ابتسامتها لم تكن مفتعلة مع ذلك ، بل إن وجهها باسم بطبيعته . وحاولت أن أعرف من أين يأتى هذا الإحساس ولكنى لم أستطع أن أحدد ..

كان مولر يقول لإبراهيم وقتها : لابد أن نرسل لجنة تحقيق. ونحن فى الحقيقة منظمة فقيرة تعمل بتبرعات الأعضاء ومعظمهم عجائز مثلى.. يعنى حتى لو دبرنا الأموال فستكون هناك مشكلة فى أن نجد متطوعين للبعثة .. أعنى متطوعين شبابا قادرين على العمل ..

قال إبراهيم ألا يمكن أن تفعلوا هذا عن طريق التعاون مع منظمة أخرى ؟ وراح إبراهيم يستعرض أسماء منظمات ولجان لها فروع فى لبنان وبدا أنه مصمم على ألا يترك مولر قبل أن يحصل منه على رد. ولم يكن لنا مكان فى هذا الحوار ، فملت على بريجيت وقلت بصوت خافت: فهمت مما قاله مولر فى بداية المؤتمر أن الترجمة ليست مهنتك .

فقربت وجهها منى وقالت وهى تهمس مثلى: لو كانت مهنتى لما أفسدت المؤتمر.

ثم بسطت كفيها كالمعتذرة وهى تبتسم .

قلت : ولكن مافعلته أنت كان هو الشىء الإنسانى الوحيد فى هذا الاجتماع فاختفت الابتسامة وتصلب وجهها إلى حد ما وهى تقول : أبدا . أنا لست أفضل من غيرى . كانت.. كانت مجرد لحظة ضعف ..

قلت مستغربا: ولكن لماذا تعتذرين عن ذلك؟

هزت كتفيها وهى تقول : كل مافى الأمر أنى لاأحب التظاهر ، لا أريد أن تفهم عنى شيئا غير حقيقى . قلت إنك تكره الكذب، أليس كذلك ؟

حاولت أن أغير الموضوع فأشرت إلى زيها الأزرق وسألتها : هل أنت مضيفة طيران ؟

– لا، ولكنى بالفعل مضيفة من نوع آخر . أنا مرشدة سياحية .

كنت أجاهد لأواصل الحديث بأى طريقة من أجلها ومن أجلى، لكى لا نرجع مرة أخرى إلى الصمت والشرود، فسألتها : وأنت تحبين هذا العمل ؟ عادت إلى الابتسام وقالت : لم أختره ولكنه كان العمل الممكن لى كأجنبية فى هذا البلد. أعرف بالمصادفة عدة لغات.

بحثت عن شىء آخر أقوله ولكننى لم أستطع أن أستمر أكثر من ذلك .

عدت أركن ظهرى الى المقعد صامتا كما كنت ، وظلت لفترة تنظر نحوى فى تطلع ثم انسحبت هى أيضا وأشعلت سيجارة جديدة.

قطع مولر حديثه مع إبراهيم والتفت نحوها بشىء من الغضب: يكفى هذا التدخين يابريجيت! فمالت وربتت على يده قائلة: لاتغضب يادكتور. أنا لا أدخن مطلقا أثناء العمل.. ثم ضحكت وهى تكمل: أنت تعرف أن التدخين ممنوع فى الأتوبيس السياحى على الأقل .

ومرة أخرى لاحظت أنها حين تضحك أو تبتسم ، أو حتى بمجرد أن تحرك شفتيها ، تظهر فى بشرتها خطوط رقيقة متوازية فى ذقنها وعند ركنى عينيها . وقلت لنفسى ربما كان هذا مايعطى وجهها تعبيره الباسم باستمرار. وأمعنت النظر فيها وأنا أتساءل: فمن أين إذن يأتى ذلك التعبير الاخر الذى لا أستطيع أن أحدده ؟

وكان مولر يكلمها وقتها بالألمانية التى أفهم منها بعض العبارات واستطعت أن أميز منها قوله : هل هو عقاب ؟.. ليس هذا حسنا يابريجيت .

اتجه ابراهيم نحوها وقال بلهجة حميمة كأنه يعرفها من زمن طويل على طريقة الصحفيين حين يحاولون إغراء الآخرين بالحديث: بريجيت.. أنت ألمانية أو أسبانية؟

فردت : لا هذه ولا تلك. أنا نمساوية .

قال إبراهيم: ولكن واضح أنك تجيدين الأسبانية تماما. كان بيدرو يتكلم أحيانا بسرعة شديدة وبصوت خافت فى معظم الأحيان لكنك كنت تتابعينه باستمرار. أين تعلمت الأسبانية ؟

- فى الجامعة .

ثم سكتت قليلا وقالت : وهى أيضا لغة زوجى .

خيل إلى أن صوتها تغير قليلا وهى تقول ذلك . وخيل إلى أيضا أنى لاحظت نوعا خفيفا من الدهشة فى وجه إبراهيم حين تكلمت عن زوجها ، ولكنه واصل بلهجته العادية : وزوجك أسبانى أو من أمريكا اللاتينية ؟

رنت فى صوتها نبرة من التحدى لم أعرف سببها وهى تخاطب إبراهيم :

- لا من أسبانيا ولا من أمريكا اللاتينية هو أفريقى من قارتكم، من غينيا الاستوائية .

سألها إبراهيم : وهم يتكلمون الأسبانية هناك ؟

وكنت أعرف أنه يسأل لمجرد أن يقول شيئا، ولكن بريجيت ردت والتوتر يزداد فى صوتها : أنت صحفى، ومن أفريقيا أيضا، ولا تعرف إن كانوا يتكلمون الأسبانية هناك أم لا؟

ثم تراجعت على الفور وقالت : أنا آسفة . لم أقصد ماقلت. هو بلد صغير على أى حال ولم أقابل كثيرا من الناس يعرفون شيئا عنه.

تدخلت فى الحوار لكى أنقذ إبراهيم الذى احتقن وجهه وقلت : إذن حدثينا أنت عن البلد. أعترف أننى أنا أيضا لا أعرف شيئا عن غينيا الاستوائية . هل ذهبت إلى هناك؟

قطبت جبينها وبدا عليها التردد لحظة قصيرة، ولكنها تغلبت على ذلك التردد بسرعة واندفعت تقول: كنت أنوى الذهاب ولكننى طلقت قبل أن أذهب .

ثم ضحكت بريجيت ضحكة مرتبكة وحل الصمت من جديد وزاد إحساسى بالتوتر فأردت أن أقوم ولكن إبراهيم قال لحظتها : سمعتك تقولين إنك مرشدة سياحية وهذه أول مرة أزور فيها المدينة فما هى الأشياء التى تنصحين بأن أراها؟

مدت بريجيت يدها إلى حقيبتها الموضوعة على المنضدة وأخرجت بطاقة صغيرة قدمتها إلى إبراهيم وهى تقول: يمكنك أن تأتى إلى شركتنا فى هذا العنوان وفى هذه المواعيد المكتوبة فى البطاقة . ويمكنك أيضا أن تحجز بالتليفون، وإذا كنت أنا المرشدة فى الوقت الذى تأتى فيه فسأرشدك باهتمام خاص .

ضحكنا جميعا ضحكة بلا روح ولكن مولر قال وفي عينيه نظرة ماكرة :

– أظن أن السيد ابراهيم كان يفضل أن ترشديه بدون الشركة. فقال ابراهيم مواصلا تلك الضحكة الفاترة: نعم بدون الشركة وبدون الإرشاد أيضا..

لكن ابتسامة بريجيت ضاعت فجأة وراحت تنقل بصرها بيننا نحن الثلاثة ثم ركزت عينيها على مولر بنظرة ثابتة وقالت بلهجة حاولت أن تجعلها عادية تماما: أرأيت يامولر ؟ .. ألم أقل لك؟.. ها نحن نضحك ونمزح وكأن شيئا لم يحدث . لم يعبث أحد بأصابعه فى جروح بيدرو ولم يقتل أحد أخاه فريدى . فما الداعى إذن الى التظاهر ؟

كانت تتطلع إلى مولر وحده وكأنها قد نسيتنا وعاد إلى وجهها ذلك التعبير الآخر الذى لم أستطع أن أحدده من قبل . ذلك الجمود الكامل فى ملامحها وعينيها . قناع يسقط على الوجه فيخفيه . أى قناع هو ؟ .. للحزن أم للقسوة ؟.. لا هذا ولا ذاك. فما هو؟.. لكنها لحظتها أسندت رأسها بيدها ومالت برقبتها لتبعد وجهها عنا . وقلت لنفسى هاهو القناع سيسقط ! ها هى الآن ستبكى !

وتوقع مولر ذلك ايضا على مايبدو فمد يده نحوها قائلا بشيء من الاضطراب:

– بريجيت !...

التفتت نحونا بعينين محمرتين الى حد ما ولكن لا أثر فيهما للدموع وقالت بنبرة التحدى الأولى وهى تخاطب مولر : لا تقلق ...

ثم أشارت نحوى بيدها وأكملت : كل مافى الأمر أننى أردت أن أثبت لهذا السيد أن من يتعذب يتعذب وحده. لم أتعذب أنا ولم يتعذب أحد ممن حضروا المؤتمر . لم يتعذب أحد غير بيدرو ...

وراحت تدق على المائدة بإصبعها وتتطلع الى مولر: مهما كانت اللجان الطبية والمؤتمرات الصحفية يا دكتور ..

سأل مولر بنوع من اليأس: وإذن فهل من رأيك أن نكف عن العمل ؟ فحولت بريجيت نظرها عنه وهى تقول بصوت خافت : بل كنت أقصد شيئا آخر..

ثم نظرت نحو ابراهيم ونحوى وقالت : ولكنى لم أقصدكما بالذات. أنا آسفة.

أصبح الجو ثقيلا ومحيراً فقال إبراهيم وهو ينظر نحوى ويهز رأسه متفاهما على أن ننصرف : ولكن لماذا تقولين ذلك ؟.. نحن الذين يجب أن نعتذر حقيقة .

ووضع يديه على مسندى المقعد متأهبا للنهوض وهو يقول : أنا وصديقى كنا نوشك أن ننصرف على أى حال .

غير أنها مدت يدها نحونا وقالت بنوع من الالحاح : ولكن يمكنكما البقاء قليلا مع ذلك. أقصد إذا سمحتما .

عدنا نستقر فى مكاننا بشىء من الارتباك. غير أن بريجيت التى ألحت علينا لنبقى تركتنا وأحنت رأسها وعادت إلى الصمت وزحف على وجه مولر توتر لم أستطع أن أفهمه وهو يراقب بريجيت. بدا لى وهى تتشبث بالمقعد وتشد جسمها الى أعلى أنها تبذل مجهودا صعبا لكى تسيطر على نفسها. وقلت لنفسى وأنا أنظر إليها لماذا تقاومين البكاء يا بريجيت ؟ لم لا تبكين وتستريحين؟.. لعلك فقدت مثلى القدرة على البكاء ؟ أنا أعرف أنى فقدتها من زمن ولكن متى ضاعت منى؟.. ربما كانت آخر مرة بكيت فيها منذ سنين. بعد الطلاق عندما أغلقت على

نفسى باب الحجرة التى أجرتها فى الفندق وأمسكت ورقة الطلاق ورحت أقرأ تلك العبارات الغريبة التى قطعت الى الأبد مابين منار وبينى «أنا مأنون حي... حضر السيد.. ومعه زوجته ومدخولته .. الثيب الرشيدة .. طلقة أولى بائنة.. ولا يحق له الدخول بها إلا.. رقم ١٠٩٦٠».. لحظتها جاء البكاء من تلقاء نفسه.. جاء عنيفا لا ينقطع .. اختلطت لحظات الشقاء بلحظات الفرح.. قبلاتنا المختلسة أيام الخطبة.. وجهها الشاحب يوم ولدت خالداً وهى ترقد على العربة التى نقلوها بها من غرفة الولادة.. يدها الرخوة تمسك بيدى وتقول بابتسامة ظافرة رغم التعب: كنت أعرف أنك تريد الولد!.. تلوح لى عند باب الخروج وتشب على قدميها وتقول أسرع لا تشتر شيئا من السوق الحرة، لا أريد شيئا اخرج بسرعة.. وجهها الجامد و هى تقول بحسم سآخذ الأولاد. ثم منذ متى كانت تربية الأولاد تهمك ؟ .. كل شيء فى لحظة واحدة وسط الدموع، غير أنى وقتها كنت أبكى على نفسى، كنت أرثى لحالى وأرثى لخالد وهنادى – لا أقصد الآن هذا البكاء. أقصد البكاء على أى بيدرو أو على أى الفريد. أقصد بكاء كبكائى صبيا على «أم صابر» الشهيدة وعلى جنود البوليس الذين قتلهم الانجليز فى الإسماعيلية .. كالبكاء على جميلة بوحريد حين عذبها الفرنسيون فى الجزائر .. كدموعى على لومومبا يوم قتلوه فى الكونغو ودموع الناس فى الشارع يومها.. أعنى تلك الأشياء التى غابت الآن بعيدا جدا.. التى حدثت منذ قرون وقرون.. أقصد منذ متى فقدت الاحساس ؟ ولكن فلنقل إنى عجوز فماذا عنك أنت يابريجيت؟... ربما كان الحق معك من يتعذب يتعذب وحده فلماذا نتظاهر ؟

غير أنها الآن تبتسم ابتسامتها العادية وهى تسحب سيجارة جديدة من علبتها وتعتذر : سامحنى يادكتور .

هز الطبيب كتفيه وعادا يتبادلان عبارات قليلة بالألمانية .

ولما انتهيا التفت مولر نحونا وقال بلهجة عاتبة، تكاد تكون لهجة حزينة وهو يشير اليها: هى تعرف أننى أعتبر نفسى مسئولا عن كل مايحدث لها فى هذه

المدينة. والدها هو أعز صديق لي. ذهبنا معا أيام الشباب إلى الحرب في أسبانيا ولم نفترق من وقتها . كان يريد أن تدرس بريجيت القانون مثله ولكنها فضلت أن تدرس الأدب ووسطتني لكي أقنعه.. ثم التفت نحوها وهو يقول : من يدري يا بريجيت؟.. ربما لو درست القانون لكنت معنا الآن هناك في البلد.. ربما كنت قد عملت مع أبيك وربما كنت قد واصلت العمل في مكتبه بعد أن تقاعد..

قالت بريجيت: ولكني سعيدة بعملي هنا يادكتور مولر. أفضله ألف مرة على التنقيب في كتب القانون وعلى كتابة المذكرات . وأفضل البقاء هنا على العودة الى البلد.

سألها إبراهيم بلهجة تكاد تكون مازحة : ألا تشعرين بالحنين للوطن؟ فردت مبتسمة وهي تشير بيدها بحركة باترة: على الإطلاق!

فالتفت نحوي وقال: وأنت ؟

فرددت عليه بالعربية: أرجوك أن تتركني في حالي ياإبراهيم . ليس هذا هو ما ينقصني الآن.

لم يجادلني إبراهيم الذي كان قد استرد حيويته فتحول الى مولر قائلا: عندما اشتركت في الحرب في أسبانيا ، كنت مع الجمهوريين، أليس كذلك ؟

هز مولر رأسه بالايجاب فتنهد إبراهيم بارتياح ، نظر نحو الدكتور كأنه يراه للمرة الأولى. وأوشكت أن أراهن نفسي أنه سيسأله عن تلك الحرب التي مضت عليها عشرات السنين وكأنها مازالت تدور. ففي أيام شبابنا كانت تلك الحرب التي لم نعشها والتي لم نعرفها إلا من القراءة تعني لنا أشياء كثيرة : الحلم بعالم جديد.. عالم متحد ضد الديكتاتورية وضد الظلم.. الحلم الذي انهار وإن بقيت لنا منه الرموز : همنجواي ولمن تدق الاجراس.. ومالرو والامل .. وبيكاسو والجويرنيكا.. وأشعار لوركا.. تلك الرموز التي ألهبت خيالنا في مطلع الشباب، وقلت لنفسي: ربما سيسأل إبراهيم مولر الآن إن كان قد قابل همنجواي أثناء الحرب ! .. ولكنه فاجأني حين سأله وهو ينظر نحوي :

– إذن ربما تستطيع أن تعطينى صورة أفضل عن الأوضاع هنا..

وأشار نحوى وهو يقول : صديقى يدعى أن اليسار مات في اوروبا وفي العالم فهل هذا صحيح ؟

ضحك مولر ضحكة عابرة وهو يقول : أخشى اننى لا أستطيع أن أفيدك فى هذه المسائل . تركت الاهتمام بالسياسة منذ زمن .

فقالت بريجيت : أو لم تجد أن هذا أفضل يادكتور ؟

غير أن ابراهيم لم يهتم بتدخلها وقال بشىء من الاحتجاج : ولكن لماذا ؟ .. أغلب الظن أنك كنت ماركسيا أيضا عندما ذهبت لتحارب فى أسبانيا .

فهز مولر كتفيه مرة أخرى وبدا أنه يفكر فيما يمكن أن يقوله وخطر لى شىء فقلت لإبراهيم : ربما أستطيع أنا أن أوضح شيئا. أذكر أننى كنت هنا فى أوروبا سنة ٦٨ أيام غزو تشيكوسلوفاكيا، تابعت أيامها حملات الاستقالات من الاحزاب الشيوعية وكثيرون أيامها كان رأيهم ..

فقاطعنى ابراهيم قائلا بشىء من الاشمئزاز والغضب : غزو تشيكوسلوفاكيا.. هؤلاء الرفاق الاوروبيون حساسون حقا! كم مات فى هذا الغزو؟ واحد أم عشرة ؟ وهل سمعت عن رأسمالى استقال من الرأسمالية عندما دارت الرشاشات وقتلت آلاف الشيوعيين فى استاد شيلى وشوارعها ؟.. أو قبل ذلك عندما أصبحت مياه الأنهار فى أندونيسيا حمراء قانية بدماء من ذبحوهم هناك.. غزو تشيكوسلوفاكيا حقا !!

قلت دون انفعال – أرأيت ؟.. ها أنت توافقنى على ما أعنيه. دماء الأمم الفقيرة لا تهم ولو كانت دماء ملايين . أما تشيكوسلوفاكيا فشىء أخر...

وكنت أتكلم لكى أغير جو الجلسة ولكن مولر هو الذى انفعل لأول مرة حين خاطب ابراهيم وقال مقطبا حاجبيه الأشيبين : لم أشهد غزو تشيكوسلوفاكيا

ياسيدى، ولكنى شهدت غزو المجر قبلها. كنت هناك بالمصادفة وكنت أعمل طبيبا متطوعا قبل أن تبدأ الأحداث .. رأيت الدبابات ورأيت القتلى - لم يكن الجنود الروس المساكين يعرفون أنهم فى بودابست . كذب عليهم قادتهم وقالوا لهم إنهم يحاربون الغزاة الانجليز فى بورسعيد، فى بلدكم ...

غير أنى لم أتابع الحوار. لم يعد يعنينى ذلك كله.. رأيت ابراهيم يفعل ماكان يلومنى عليه منذ قليل. كان يتكلم بحماس كعادته من ربع قرن عن اشياء مضى عليها أكثر من ربع قرن، سمعته يتكلم عن حرب بورسعيد وهو يلوح بيديه وقد أحمر وجهه وكأن سفن الانجليز تحاصرها فى تلك اللحظة بالذات. ورأيت الطبيب العجوز لا يقل عنه انفعالا وهو يتكلم عن بودابست ورذاذ خفيف يتناثر من فمه، وسمعت أسماء ناصر وستالين ونهرو وخروشوف وأسماء أخرى كثيرة ، بل وجاء ذكر نكروما فى الحوار وإن لم أعرف السبب..

حولت عينى الى بريجيت . كانت فى البدء تزر عينيها باهتمام وهى تتابع النقاش ثم بالتدريج انطفأ ذلك الاهتمام واختفت وراء دخان سجائرها المتلاحقة.. كانت بين الحين والآخر تنظر الى مولر وتبدو فى عينيها هذه النظرة الجامدة التى حيرتنى فتنتقل عدوى تلك النظرة الى الطبيب المنهمك فى الحوار دون أن تلتقى عيناه بها وأشعر بنوع من التوتر يسرى فى صوته وفى جسمه ، توتر لا يكاد يلحظ ، ولكن بريجيت تشعر به ايضا فتحول وجهها الى ناحية أخرى وكأنما انتابها الندم. ماالذى بينها وبينه؟.. لماذا ترفض تلك الأبوة التى يحاول يائسا أن يفرضها عليها منذ جلسنا معا؟ وما شأنى أنا بذلك؟... ولماذا يعدينى أنا أيضا هذا الجو الغريب الذى لا أعرف سببه ويزيدنى هما ؟

ولكن مولر انتزعنى فجأة من نفسى وهو يقول: معذرة لهذا السؤال ، وارجوك ألا تسىء فهمى. صديقك يقول لى إنك ناصرى، وأنا رغم كل شىء كنت معجبا بناصر أيام ثورته ، ولكن ألا تظن أن عصر هذه الثورات القومية قد انتهى ؟

ولكن عن أى شىء يتحدث هذا الطبيب الآن؟ ولماذا ينظرون الىّ جميعا بهذا الفضول وكأننى سأحل لهم مشكلة تتوقف عليها المصائر ؟.. وما أهمية أن أقول أى شىء فى هذه المدينة الغريبة لهذين الغريبين أو لإبراهيم الذى لا يحبنى؟ وماالذى لدىّ فى الحقيقة لكى أقوله؟.. يمكن إن أرادوا أن أحدثهم عن منار.. ذلك هو الشىء الوحيد الذى أفكر فيه. لا ، ولا حتى هذا. أى شىء عرفته عن منار بعد كل تلك السنين التى عشناها معا؟ قلت : سامحنى يادكتور ، ولكننى الآن مثلك. تركت الاهتمام بالسياسة منذ زمن ولعلى فى الواقع لم أعرفها أبدا. كنت متطفلا عليها. توهمت فى وقت من الأوقات أننى أفهم والآن أعرف أننى كنت مخطئا .

قال ابراهيم والغضب يستبد به : وتلك النظريات التى كنت تجادلنى بها ساعات طويلة ونحن فى صالة التحرير؟ .. وساطع الحصرى والقومية التى تحرك التاريخ وكل تلك الأفكار ؟ .. وقولك لى مرات ومرات إنهم بنوا قوتهم فى الغرب بفضل الدولة القومية وانهم يحاربون الآن وحدتنا لكى لا نصبح أقوياء مثلهم؟ .. لماذا لا تقول ذلك كله بدلا من أن تغمغم بعبارات «لا أفهم .. لا أعرف .. كنت مخطئا؟ ..» لماذا تتلذذ الآن بإهانة نفسك؟.. أم أنك تدارى وراء تلك الإهانة نوعا من الترفع كعادتك ؟ أم أن هذا صحيح وأنك تعتبر نفسك ميتا بالفعل؟.. وإن كان هذا صحيحا فلماذا لا تقوم وتلقى بنفسك فى هذا النهر؟..

قال مولر بمزيج من الدهشة والذعر: لا داعى لكل هذا العنف ياسيد ابراهيم ربما كان صديقك لا يشعر بالرغبة فى أن يتكلم فما الداعى الى هذا العنف ؟...

قلت للطبيب : لا تهتم . تعودنا على هذه الطريقة فى النقاش من زمن طويل. ثم التفتّ مخاطبا ابراهيم: لا شىء مما قلته صحيح. كل مافى الأمر أننى اكتشفت اليوم شيئا مهما جدا. ربما بفضل بيدرو ايبانيز أو ربما كنت أنت السبب أو لعلها بريجيت أو لعلها منار : اكتشفت أننى أكذب .

قال ابراهيم نافد الصبر : عدنا مرة أخرى لهذه النغمة !

ولكنى لم أعد أشعر بالغضب من ابراهيم ولم يستطع أن يستفزنى . كنت بالفعل بعيدا عن الحوار وبعيدا عن الغضب وبعيدا عن المكان كله وحل بى

الاجهاد فجأة فوقفت قائلا لإبراهيم : أنا متعب قليلا ويجب أن أنصرف الآن. هل تريد أن أوصلك الى مكان ؟

فرد ابراهيم بشىء من الارتباك : لا، أنا أعرف الطريق الى الفندق، ولكن أنت.. هل تنصرف الآن لأنى أغضبتك ؟.. أرجوك ألا تفهم أنى.. فقلت محاولا الابتسام: بالطبع لا . سأمر على فندقك غدا كما اتفقنا وسنواصل هذا النقاش . غدا سأكون جاهزا لك !

وبينما كنت اصافح ابراهيم نهضت بريجيت فجأة وقالت بحسم : خذنى معك. انحنت تلتقط حقيبتها ولوحت لابراهيم بيدها ثم طبعت قبلة سريعة على جبين مولر.



كانت بريجيت تجلس الى جوارى فى السيارة واكتفيت بمتابعة ارشاداتها لكى نصل من أقصر الطرق الى بيتها. سألتنى ونحن نخرج من المقهى عن طريقى ولما قلت إنى ذاهب الى البيت طلبت أن أصحبها الى أقرب محطة أتوبيس أو تاكسى ، ثم لم تمانع كثيرا حين عرضت أن أوصلها الى المكان الذى تريده. كنت أنظر بين الحين والآخر الى وجهها فى مرآة السيارة وأرى ذلك القناع ، ذلك الانسحاب الكامل الى الداخل فأوشك أن أقول شيئا. أوشك أن أقول ياابنتى مازالت الدنيا كلها أمامك فلا تتركى نفسك لتصبحى مثلى ! عودى الى زوجك إن كنت تحبينه وإن كان هذا هو سبب كل الهم الذى يطفو على وجهك . ولكنى كنت أتراجع وأقول أنا بالكاد أعرفها . لا يحق لى أن أقتحم صمتها . ولما أوقفت السيارة اخيرا أمام العمارة التى تسكنها فى حى هادىء فى طرف البلد عرضت بريجيت على أن أصعد معها لكى أشرب شيئا. قلت لها إننى متعب وأريد أن أذهب الى البيت لأرتاح. ولم أكن أكذب لكنها وضعت يدها على كفى الممسكة بعجلة القيادة وقالت وهى تبتسم : إذن تعال. سأصنع لك قهوة قوية تزيل هذا التعب. تعال إذا سمحت . وأنارت بسمتها المفاجئة وجهها .

كانت تسبقنى فى مدخل العمارة الذى تحف به المرايا على الجانبين وهى تمشى بخطوات سريعة فأراها خمس أو ست مرات على اليمين وعلى اليسار بزيها الازرق ، طويلة منتصبة القامة ، وأرانى خلفها بخطوتى البطيئة وثوبى الداكن نقيضين كاملين. وقلت لنفسى هازئاً الربيع والخريف . النهار والليل. تعال ياابراهيم هاانذا اتلذذ بإهانة نفسى !

كانت شقتها فى الدور العاشر ، شقة من غرفة واحدة واسعة أو تبدو كما لو كانت واسعة لأن الاشياء القليلة المتناثرة فى جوانبها تترك وسطها كله خاليا. بعد المدخل كانت هناك (كنبة) ، كبيرة الى اليسار خمنت أنها تحولها سريرا فى الليل والى جوارها مقعدان صغيران يحيطان بمائدة صغيرة من الخيزران عليها مفرش صغير منقوش بورود صفراء وحمراء ، وفى نهاية الغرفة كان هناك ساتر اسود تغطيه صورة فتاة تلبس كيمونو ابيض بحواف مذهبة وتخفى نصف وجهها بمروحة وردية. ومن السقف كانت تتدلى كرة ورقية بيضاء تحتضن مصباحا وحيدا كبيرا. تركتنى بريجيت ودخلت وراء الساتر، الذى يخفى وراءه المطبخ والحمام. سمعت صوت الماء من صنبور وقالت لى من هناك بصوت مرتفع قليلا : دقيقة وسأكون معك، اعتبر نفسك فى بيتك وخذ راحتك ...

تجولت فى الغرفة شبه الخالية ، ووجدت فى ركن بجوار الشرفة الواسعة رفا صغيرا عليه مسجل للموسيقى وبعض الأشرطة لأغان خفيفة ، والى جوار تلك الأشرطة كان هناك عدد من الكتب . قرأت العناوين وكانت معظمها روايات بوليسية بالألمانية والانجليزية أغلفتها مهترئة وعلى واحد منها صورة فتاة مذبوحة جاحظة العينين وعلى غلاف آخر صورة رجل بيده مسدس يخرج دخانا ويختفى وجهه تحت قبعة . ولكنى وجدت ايضا وسط هذه الكتب ديوان شعر بالالمانية لهاينى ومجلدا يضم اشعار لوركا بالاسبانية . وجاء من ورائى صوت بريجيت وهى تقول بنبرة اعتذار : لن تجد فى هذه الكتب شيئا يهمك .

عدت نحوها وهى تتقدم من المنضدة الصغيرة حيث وضعت فنجانى القهوة. كانت قد خلعت سترتها وحذاءها وظلت بالبلوزة البيضاء الخفيفة والجونلة الزرقاء وخف منزلى.

قلت وأنا أجلس على المقعد قبالتها مشيرا الى الغرفة والى فتاة الكيمونو:

- من أين جاءتك هذه الافكار اليابانية ؟

فقالت بابتسامة خفيفة : لم تأتنى أفكار يابانية ولا صينية . عندما سكنت هنا لم أكن أملك شيئا ابدا وكانت هذه ارخص طريقة لتأثيث المكان ..

وبينما تمد لى يدها بفنجان القهوة سألتها هل أنت بالفعل سعيدة هنا كما قلت؟ ألا تريدين حقا العودة الى بلدك ؟

فهزت رأسها تؤمن على كلامى وكررت مثل تلميذة تحفظ درساً : نعم، أنا بالفعل سعيدة هنا، وأنا لا أريد العودة الى بلدى .

ثم نظرت الى وسألتنى : وأنت ؟ .. عندما سألك صديقك هذا السؤال رفضت أن تجيب، فهل أنت سعيد هنا ؟

- لا ، لست سعيدا هنا .

- هل ستكون أحسن حالا لو رجعت الى بلدك؟

فكرت قليلا قبل أن أرد ثم قلت وأنا أحك جبينى : ليست المسألة سهلة . أنا مثلك مطلق، وأسرتى تعيش هناك. ولكنك صغيرة تستطيعين أن تبدئى من جديد لو رجعت أما أنا ..

لم استطع أن أكمل فتوقفت وقالت هى بعد فترة :

- معذرة ولكنى لم أفهم شيئا . ربما كان ماقاله صديقك صحيحا ، أنت تجد سعادتك فى تعذيب نفسك .

- ربما

شعرت بريجيت أننى لا أريد أن أتكلم فقالت وهى تسند رأسها الى يدها : لا تهتم ثم سألتنى : هل تريد أن تشرب شيئا ؟

- ألا نشرب القهوة بالفعل ؟

- إذن بعد إذنك أنا سأشرب .

تركت فنجانها كما هو تقريبا واختفت وراء الساتر مرة أخرى ثم رجعت وفى يدها كوب طويل تهزه فى يدها وعادت تجلس قبالتى. ولفترة لم يكن هناك غير رنين الثلج فى الكوب ولكننى فجأة وجدت نفسى أقول لها دون تدبر:

- هناك شىء حيرنى مع ذلك ونحن نجلس فى المقهى . شىء عن الدكتور مولر.. اسف للسؤال ولكن اقصد لماذا عندما كنتما تتحدثان معا كأن هناك بينكما..

ثم تلجلجت ولم أكمل ماكنت أريد أن أقول .

غير أنها شربت جرعة كبيرة من كأسها ثم وضعتها على المائدة وثبتت عينيها الزرقاوين على وجهى وهى تبتسم ابتسامة واسعة حركت كل تلك الغضون الرقيقة فى ذقنها وحول عينيها وقالت : بيننا أشياء كثيرة.. أول شىء أنه كان عشيق أمى.

تراجعت للخلف كالملسوع وأنا اغمغم : أنا.. أنا متأسف للسؤال . لماذا تبوحين لى بذلك؟ أنا لم أتصور أن..

قاطعتنى دون أن تغير ابتسامتها: ولماذا لا؟ ألم تقل إنك تكره الكذب؟

- لم أقل ذلك . قلت إننى اكتشفت انى أعيش فى الكذب.

نهضت وأخذت تتمشى فى الغرفة وبيدها كأسها تواصل هزها وهى تتكلم على ايقاع رنين الثلج : حسبت أنك قلت ذلك، رأيت شيئا فى وجهك ..

- ولكن أرجوك مرة أخرى لماذا تبوحين لى بهذا السر أو غيره . نحن لم نكد نلتقى. أشك حتى فى أنك تعرفين اسمى .

- ألم تسألنى عن مولر ؟

- نعم ، سؤالا عابرا. سؤالا خاطئا ولكنى لم أكن أريد أن أعرف اسرارا، نحن غريبان .

وقفت وتطلعت نحوى قليلا قبل أن تقول: ولكن هذا أفضل كما تعرف. الناس لا تبوح بأسرارها للأصدقاء وإنما للغرباء ، فى القطارات أو فى المقاهى العابرة . ولكن هذه ليست هى المسألة الآن . المسألة أنى أريد أن أتكلم . هذا المساء أريد أن أتكلم . ألا تستبد بك أحيانا هذه الرغبة ؟

- أتكلم طوال الوقت، ولكن مع نفسى. فى رأسى حوار لا ينقطع .

- وكذلك أنا ، ولكنى سئمت ذلك .

ذهبت بريجيت نحو (الكنبة) ولكنها لم تجلس عليها، بل جلست على الأرض المكسوة ببساط رمادى ثم أسندت ظهرها الى الكنبة وفردت ذراعها الخالية فوقها. بالكاد مست الكأس بشفتيها ثم وضعتها بجوارها على الارض وفكت الضفيرة الملتفة خلف رأسها وبدأت تحلها ببطء. كانت الشمس تغمرها وهى تجلس هناك ولكنى رأيت من الشرفة السحب البيضاء الرقيقة تزحف مرة أخرى بهدوء نحو القرص الذهبى الذى قارب الغروب . وبدأت بريجيت تتكلم بصوت خافت دون أن تنظر نحوى، كأنما لا يعنيها بالفعل أن أسمعها أو لا أسمعها وإنما المهم أن تتكلم.

قالت : بالأمس جاء مولر ولم أكن قد رأيته من سنين طويلة فرجع كل شىء من جديد. رجعت بريجيت الطفلة بالرغم منى . كنا نسكن.. أقصد نحن نسكن حتى الآن مدينة صغيرة فى الغرب. وكنت ابنة وحيدة . لم أعرف فى صغرى أبى كما وصفوه لى فى شبابه . لم أر فيه ذلك الحماس الذى قاده الى الحرب فى اسبانيا قبل أن أولد بكثير. رأيت فقط ما صنعته به عشرون سنة بعد ذلك. قيل لى إنه كان محاميا قديرا، ولكنى عرفت أنه لا يقبل غير القضايا الصعبة، القضايا الخاسرة فى الغالب . يقبل الدفاع عن الفقراء وعن النقابات بأتعاب زهيدة لمجرد أن يرفع ظلما أو يثبت حقا قانونيا ما للنقابات . خطر لى فيما بعد عندما كبرت أنه اراد أن يعوض الهزيمة فى اسبانيا بأن ينتصر بالقانون لكل المظلومين فى العالم ، أو على الاقل فى النمسا . ولكن النتيجة مع الأسف كانت هزائم كثيرة جديدة . لم يكن حظه مع القانون أفضل من الحرب. كل ما حدث هو أن أصحاب القضايا

المهمة التى تحقق مكاسب كبيرة أصبحوا يتجنبونه، ثم قاطعوه بالفعل. وها هو الآن، بعد كل السنين التى عملها، يعيش فى المنزل الذى ورثه عن جدي، لايملك غير معاش الشيخوخة الضئيل وإعانة صغيرة من النقابة. ومع ذلك فمازلت أذكر عندما كنت طفلة كيف كان منهمكا تماما فى عمله الفاشل، كأنه نسينا أنا وأمى. كان وقته كله لمكتبه أو للمحكمة أو لغرفة المكتب فى البيت يقلّب المجلدات أو يكتب المذكرات. أحببته كثيرا جدا. كنت أشعر حتى وأنا طفلة صغيرة أنه مهزوم وأشفق عليه كأنى أمه لا ابنته. أحمل إليه فى غرفته القهوة أو العصير ثم أجلس أمامه فترات طويلة أراقبه وهو يقرأ أو يكتب ويحك جبينه باستمرار. وحين يلاحظ وجودى يسألنى بدهشة عما أفعله هناك، يسألنى لماذا لا أذهب كى ألعب أو أنام، فأذهب إليه وأقبله فى وجنته. أطلب منه أن يحكى لى حكاية لكى أذهب وأنام. يبدو فى وجهه التذمر لأنى أعطله عن عمله لكنه يحيطنى بذراعه ويبدأ فى تأليف حكايات صغيرة ينتصر فيها العدل والخير دائما. أذكر باستمرار أنه كانت هناك حمامة يطاردها ثعلب شرير ولكنها كانت تستعين بسرب الحمام فتنتصر رغم كل شيء على مكائده. نعم، لم ينجح أبى فى الحرب ولا فى القانون ولكن كان من المستحيل أن تنهزم حيواناته المسكينة! ... أما عمى مولر فكان يختلف. عمى مولر كان باستمرار طبيبا ناجحا. واعتاد أن يأتى إلى البيت كثيرا فى وجود أبى وفى غيابه. فى الحقيقة كان يأتى أكثر فى غيابه. دائما يحضر لى الحلوى ويحملنى ويقبلنى. يسأل أمى التى كانت صحتها عليلة دائما: كيف تشعر سيدتنا اليوم؟.. يمسك معصمها ويمسك يدها ويتحسس صدرها. يأخذها إلى الداخل ليواصل هذا الكشف أو يصرفانى إلى الخارج بحجة ما. وكنت على ما أذكر فى الثامنة من عمرى عندما واجهت مولر. فتحت له الباب حين أتى، ولما قدم لى الحلوى رميتها وأخذت أضربه فى بطنه ورجليه بقبضتى معا وأنا أصرخ: اذهب.. اذهب.. أنا لا أريد أن أراك.. لا أريد الحلوى التى تحضرها.. اذهب!.. أنا لا أحبك!.. وقف لا ينطق بحرف وكانت أمى أيضا تقف خلفى تضع راحتها على فمها وقد اتسعت عيناها. وبعدها لم يعد مولر يأتى، ولكن أمى هى التى أصبحت

تخرج كثيرا. وسكتت بريجيت قليلا ثم قالت : هذا قبل أن تموت أمى. قبل أن تذهب الى المصحة وتموت هناك .

كنت أرهف السمع منذ بدأت ، حريصا على ألا تفوتنى كلمة وقد تيقظت حواسى التى كانت منذ قليل هامدة ومخدرة نفذت الى قلبى نبرة ما فى حديثها ملأتنى حزنا واشفاقاً عليها . وأوشكت أن أقوم فأجلس الى جوارها هناك على الارض لأحكى لها ايضا كل ماأوجعنى ، دون كذب ولا كبرياء ولا تستر وراء كلمات أحافظ بها على تلك الواجهة التى تخفى وراءها الانهيار والخراب. غير أنى لم أفعل شيئا . ظللت أتطلع اليها مجمدا فوق ذلك المقعد الصغير ، وكانت قد نجحت فى حل ضفيرتها وتركت شعرها الذهبى الطويل ينسدل فوق كتفها اليمنى ثم اخذت تمشطه بأصابعها . ولكن قبل أن اجد مايمكن أن أقوله فاجأتنى بأن ضحكت وهى تتطلع فى وجهى مباشرة وتقول : ولكن هذه ذكرى طفولية . تعلمت من زمن أن اغفر لأمى بل وحتى أن أفهمها وكان يمكن ايضا أن أغفر لمولر .

ووجدتنى أقول بعد فترة: هو عجوز جدا .

فرددت ورائى كعادتها : نعم ، هو عجوز جدا .

مدت يدها الى كأسها التى نسيتها ، رفعتها الى فمها ثم عادت تضعها الى جوارها وتقول بصوت مرتفع الى حد ما : اسمع . كل شىء يمكن غفرانه إلا أن تكذب على نفسك وتكذب على الناس عن عمد. أنت الذى قلت ذلك ألم تقله ؟ أقصد، ماذا أقصد ؟.. أريد أن أقول إن اخطأت فكن شجاعا . على الانسان أن يحاول على الاقل أن يتصرف على أنه مخطىء لا أن يواصل الخداع ..

لم أفهم ماتريده بالضبط . هل تتكلم الآن عنى أم عن مولر؟ أى أخطاء يجب أن أصلحها وهل بقى وقت؟ .. لكنى بدلا من ذلك واصلت الكلام عن مولر ، قلت: ربما كان الآن يكفر عن اخطائه هو الآن يحاول حتى فى هذه السن . يحاول أن يساعد الآخرين..

قالت باشمئزاز وكأنى أسأت إليها: يساعد الآخرين حقا !...

– أليس مايفعله الآن، فى هذه اللحظة هو نوع من...

فقاطعتنى بشيء من الغضب.. لا ليس نوعا من أى شيء !.. قلت لك إننى أوشكت أن أغفر له لولا هذه اللجان والاشياء المضحكة..

قامت فجأة وأخذت تسير فى غرفتها شبه الخالية وهى تعقد يديها أمام صدرها. ومرة أخرى استبدت بى الحيرة والاحساس بأنى لست فى مكانى فأردت أن أترك هذه الحكاية كلها وهذا المكان وأن انصرف ، ولكنها جاءت ووقفت أمامى وقالت بهدوء ولكن بلهجة قاطعة : مولر هو الذى دمر حياتى ...

قلت فى ذعر حقيقى.. هل كان معك أنت أيضا ؟ .. أقصد هل اصبحتما أنت وهو ..

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقاطعتنى قائلة: عشيقين ؟.. لا ، أى خيال هذا؟ .. مولر ؟!.. قلت لك انه ساعدنى على طريقته فدمر حياتى.. أقصد إن كنت لا تستطيع أن تساعد غريقا فلماذا تتظاهر بأنك تمد اليه يدك ..؟ لماذا تعجّل بغرقه؟.. ولماذا تكرر هذا التظاهر مرة ومرتين ومائة مرة حتى تجعل منه حرفة؟...

كان الغروب قد حل ولكنها لم تضىء المصباح، وفى الغرفة شبه المعتمة بدأت تروى حكايتها الحقيقية. عادت تتمشى وهى تتكلم ، ترجع احيانا وتجلس الى جانبى ، ثم تقوم مرة اخرى لتجلس على الكنبة أو لترجع الى جلستها المفضلة على الارض تحتها دون أن تتوقف عن الكلام . راحت تخرج أمام إنسان آخر ، تصادف أنها قابلته عندما كانت تريد أن تتكلم ، كل الحوار الذى ظل يدور لسنين فى رأسها . فى مرة أو مرتين لمعت الدموع فى عينيها ولكنها فى هذا المساء ايضا لم تبك . على الاقل لم تبك أمامى إلى أن تركت شقتها بعد ذلك اليوم الطويل..

أضاءت النور قبل أن أخرج فأجفلنا معًا وكأننا ، كلينا ، نفيق من حلم ، أمسكت بكتفيها عند الباب المفتوح وقبلتها فى جبينها.

مالت هي أيضا وقبلتنى فى وجنتى وهى تقول : شكرا لك أنت لا تعرف أى هدية جميلة قدمتها الى !

ثم قالت وهى تصافحنى : اليوم عيد ميلادى السابع والعشرون ..

الفصــــل الرابع

هشــــة كفراشــــة

فى مطلع الشباب ، عندما كنت فى كلية الآداب وتعلمت قراءة الأدب الأجنبى ، كانت العبارة التى استهل بها تولستوى رواية «أنا كارنينا» تحيِّرنى : كل الأسر السعيدة تتشابه ولكن كل أسرة شقية فريدة فى شقائها . كنت أسأل نفسى لماذا يبدأ روايته العظيمة بهذه الحكمة التى لا تقدم ولا تؤخر ؟ ..

الآن فى آخــــر العمر أدرك أنه كان على حق . لا أعرف الكثير عن الأسر السعيدة، هل تتشابه أفراحها أم لا ، لكنى أعرف أن الشقاء ندبة فى الروح ، إن بدأت فى الطفولة فهى تستمر العمر كله . وأفهم أنه لا توجد ندبة تشبه أخرى . ولكنى أسأل نفسى أيضا - حتى وإن لم تتشابه تلك الندوب ، أليس ذلك الشىء المحفور فى أنفسنا علامة يتعرف بها بعضنــــا على البعض ؟ .. ألا نتشابه نحن أيضا ؟

لماذا اختارت بريجيت أن تحكى لى أنا كل ما قالته ؟ .. هل كنت حقا ذلك العابر المجهول الذى أرادت أن تحكى له أسرارها لكى تفرغ منها أم كان هناك تصميم واختيار ؟ .. ولماذا استطاعت حكايتها البعيدة عن عالمى وعن كل ما أعرف أن تنفذ إلى قلبى بهذا العمق ؟

لماذا حزنت كل هذا الحزن على ذلك الأب المهزوم وعلى بريجيت الوحيدة بل وعلى زوجها الأفريقى الذى جعلتنى كلماتها أراه وأشفق عليه ؟ .. فهمت حكاية عالمك النائى عن دنياى ، فلعلك كان يمكن أن تفهمى أنت أيضا لو حكيت لك . ربما كان يمكنك أن ترى مثلى عالما بعيدا عنك . قرية صغيرة لا تشبه قريتك فى شىء ، قرية فقيرة فى آخر الصعيد ، ولكن يعيش فيها أيضا طفل وحيد مع أبيه .

ومع ذلك فأنا أعرف أنى لن أحكى لك ، وأعرف باليقين نفسه أنى لن أهرب من هاتين العينين ، عينى ذلك الطفل الذى يطاردنى منذ الصباح . لا يجدى ما أرهقنى به ذلك اليوم المشحون . لا يجدى أنى أتقلب فى الفراش بحثا عن نوم لا يجىء . لا يجدى أنى أسأله ما الفائدة ؟ .. ما الفائدة من أن تلازمنى فى مغرب العمر ؟ .. أية دروس سأتعلمها الآن ؟ وبم يفيد تعلم الدروس وقد فات الوقت ؟ .. أم أنك لا تريد أن تعلمنى شيئا ، بل تطلب حقا ما . ولكن ما هو ؟

نعم أراك . أراك كما تأتينى دائما طفلا وحيدا . طفلا ماتت أمه بالملاريا وهو فى الرابعة من عمره . أول ما يذكره هو وجهها فى تلك الليلة ، وجه كالشمع الأبيض يغسله عرق لا ينقطع وأسنانها تصطك . تنتفض وتطلب ماء . يرى أباه يرفع رأسها ليسقيها الماء فيتوقف ذلك الانتفاض فجأة وتميل برأسها على يده يرى حتى الآن حدقتيها تسبحان ببطء فوق بياض عينيها . يرى حتى الآن أباه يوسد رأسها فيبرز وجهها الأصفر وحده صغيرا جدا من ثوبها الطويل الأسود . يراه ينتصب واضعا يديه على كتفيه الصغيرتين متطلعا نحوه فى دهشة وهو يقول «خلاص ياولدى» . يغمره خوف حين يرى نسوة يندفعن إلى الغرفة مولولات وهنّ يلوحن بطرحهن السوداء فيدفن وجهه فى جلباب أبيه .

تأتينى بعد ذلك دائما فى يومك الأول فى المدرسة . كم كان فخورا يومها وقد ارتدى البذلة لأول مرة وأبوه يصحبه معه ليذهبا إلى المدرسة البعيدة فى المدينة . يتذكر كيف كان فى أيامه الأولى يفرح عندما يقول له أحد المدرسين أن يخرج من الفصل ويطلب من أبيه أن يحضر بعض الطباشير أو حبرا للأقلام أو أن يحمل له إحدى الخرائط الكبيرة التى يضعونها على السبورة . بل وأفرح عندما يطلب منى أبى أن أساعده فى نهاية الأسبوع بعد أن يخرج كل التلاميذ والمدرسين فيشمر جلبابه ويربطه فى وسطه ويرفع كميه حتى كتفيه بينما أحمل له جرادل الماء ونمر على الفصول كلها وهو ينتقل من فصل إلى آخر يمسح الأرض بخرقته المبللة مقرفصا فى الأرض . ومتى بدأت أشعر بالعار ؟ .. عندما كبرت قليلا ؟ .. عندما

بشفيف في وجهي أحد المدرسين وهو ينظر في ساعته قائلا «لماذا لم يضرب أبوك المسطول الجرس يا ولد ؟ .. اخرج صحيّه !» عندما كان التلاميذ يعيّروننى إن ما تشاجرنا فى الفسحة ؟ .. أيامها كنا نحن الفقراء حفنة صغيرة فى المدرسة وسط أبناء ملاّك الأرض وأبناء الموظفين فى المدينة . يجدون فى إهانتنا متعة وفخرا ويزيد العداء لو تفوقنا فى الدراسة . نجح البعض فى ستر فقرهم ، أما أنا فكيف كنت أستطيع ؟ .. وكيف كنت أملك أن أخفى درجاتى العالية فى كل المواد؟ ولكن حتى بعد أن خرج أبى إلى المعاش وأنا مازلت فى المدرسة الابتدائية ظل لقبى متوارثا لدى أجيال المدرسين . عندما يأتى مدرس جديد ويبدأ كالعادة فى قراءة أسماء التلاميذ ثم يسأل ذلك السؤال الذى لا مفر منه «ما هى مهنة الوالد ؟» .. يتطوع أكثر من تلميذ فى الفصل قبل أن أرد «كان فراش المدرسة» ، فيعرف المدرس وأعرف أنا أنه لن يجد سببا يمنعه من أن يسبنى ومن أن ينزل بى كل العقاب الذى يخاف أن يصيب به أبناء الآخرين . كم مرة تشاجرت مع التلاميذ الذين أهانونى بسبب أبى ؟ .. كم مرة ضربتهم وضربونى وأسلت دماءهم وأسالوا دمى دون أن أجسر مرة واحدة أن أبوح لأبى بسبب جروحى ؟ .. وكم بالغت فى الفخر به بعد ذلك فى الصحيفة وفى الاتحاد الاشتراكى وأمام منار أول ما تعارفنا ! أحكى للجميع عن أبى فراش المدرسة الذى قتّر على نفسه وادخر الملاليم والقروش لكى يعلمنى فى الجامعة . ولكن هل شفت تلك الخطب الكبيرة الجروح الأولى ؟ هل أزالت المهانة ؟ .. ربما .. عندما كان الرئيس واحدا منا ، نحن أبناء الفقراء ، وعندما انحاز إلينا . عندما لم يكن الفقر عارا . ولكن ألم أشعر بالعار القديم نفسه عندما كان على أن أملأ «كشف الأسرة» وأن أذكر مهنة الأب والجد يوم فكر خالد بعد الثانوية العامة أن يدخل الكلية الحربية ؟ .. فما الداعى إذن إلى التظاهر ؟ .. ما الداعى إلى الكذب ؟ انتهت جنة الفقراء . لم توجد يوما جنة للفقراء . كانت تلك أيضا كذبة يجب أن ننساها ..

أتلذذ بإهانة نفسى حقا يا إبراهيم ! ولكن إبراهيم معه حق ! .. كيف يمكن أن يأتى النوم وأنت تعذب نفسك بهذه الأفكار ؟ .. لم لا تتذكر بدلا من ذلك الأشياء الحسنة التى فعلتها ؟ .. لمْ لا تفكر مثلا فى أنك صممت على أن تعلن فقرك وعلى أن تقهر فى داخلك إحساس المهانة بسبب هذا الفقر ؟ .. لم تفعل مثل آخرين تعرفهم يقضون عمرهم فى محاولة الهرب من أسرهم الفقيرة وفى إخفاء نشأتهم المتواضعة . لم لا تذكر أنك عندما وقع الانقلاب فى الصحيفة رفضت أن تساير الركب ؟ .. لم لا تذكر ما قلته لمن جاء يوسوس لك : ابعث برقية تأييد للرئيس ! .. الرئيس معجب بك ويعرف أنك صاحب قلم . اكتب افتتاحية ضد مراكز القوى ! صرفته بأدب قائلا لن أرسل برقية ولن أكتب افتتاحية . كنت تعرف أنه سينقل ذلك وأردت أن ينقله . لم تقل خطبة عصماء ولكنك أردت فقط أن يعرفوا أنك لست للبيع فعرفوا ودفعت الثمن . ولم لا تتذكر أنك حاربت السقوط بعد أن تركتك منار ؟ .. إنك حاربت أن تنهار أمام مهانة الحب المخذول ؟ .. إنك رفضت أن تشكو وأن تتاجر بجراحك ؟ .. إنك حاولت فى كل الظروف أن تنجو من السقوط فى بئر الرثاء لحالك ثم أن تجعل من هذا مبررا لكل سقوط ؟ ..

ألا يغفر لى هذا ياإبراهيم ؟ .. ألا يغفر لى أنى حاولت يا إبراهيم ؟ .. ولكن ما أهمية . هذا كله الآن ؟ .. ومتى يسمح لى ذلك الطفل بأن أعقد الصلح معه ؟ .. متى يتركنى ؟ .. لو يأتى النوم ! ..

لكنه لا يأتى .. أغفو قليلا فتدهمنى أحلام أصحو منها فى فزع دون أن أذكر ما هى . أجلس فى الفراش مرة أخرى وأقاوم الرغبة فى أن أقوم وأدخن . أستعين بتحذيرات الطبيب لأمنع نفسى . يزورنى وجهه المتجهم بعد أن فحصنى وقاس الضغط فى آخر مرة . عندما طلب منى بهدوء ألا أرجع إلى عيادته مرة أخرى إن واصلت التدخين . أذكر الصداع العنيف فى أزمة الضغط الأخيرة فتهدأ رغبتى فى التدخين لكن النوم بعيد .

إذن ما رأيك فى الشعر ؟ .. جربته فى مثل تلك الليالى ... أسترجع كل أبيات الشعر التى أحفظها إلى أن يغلبنى النوم . نبدأ بالشعر الجاهلى ؟ .. بطرفة بن

المعبد الذى تعشقه ؟ .. ليكن : لخولة أطلال ببرقة ثهمد ، تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد .. هل هى فى ظاهر اليد أو فى باطن اليد ؟ .. لا يهم . أكمل . دعك من وصف الناقة . ادخل على : فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد ... ثم ماذا ؟ .. آه . ومازال تشرابئ الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى .. إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد .

نعم ، بالضبط أيها الأستاذ البعير المعبد ! .. هذا هو أنت - تحامتك العشيرة مع أنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى حلقة القوم ! .. ولكن ربما لأنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى الحلقة ؟ .. هكذا لن نصل إلى شىء . ليست هذه ليلة طرفة على أى حال . لا تصلح لما نحن فيه . دعك من الشعر الجاهلى كله لكى لا يأتى بيت : أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصال عقد حبائل جذامها . لكى لا تجر نوار منار . ادخل على المتنبى - ولكن هناك أرق على أرق ومثلى يأرق . دعك منه الآن أيضا . لن يجلب نوما . من إذن ؟ .. البحترى ؟ .. صنت نفسى ؟ .. جعجعة أكثر من اللازم فى الليل . صلاح عبد الصبور ؟ .. جارتى مدت من الشرفة حبلا من نغم ؟ .. ولكننا سنتصل مباشرة إلى طلع الصباح فما ابتسمت وكل ذلك الحزن . أمل دنقل ؟ .. سيجرنا على لا تصالح فنظل حتى الصباح فيما نهرب منه . نريد شاعرا هادئا .. زهير ؟ .. عمر بن أبى ربيعة ؟ .. كثير عزة ؟ .. السياب ؟ .. أحمد شوقى ؟ .. من ؟ .. من؟.. شاعر مريح .. شاعر طيب .. لكنى أدخل فى بهو طويل على جانبيه صفان من رجال صلع الرؤوس عرايا الصدور يبتسمون فى مكر وأنا أمر بينهم مسرعا .. شىء مهم يجب أن أفعله وإن لم أدرك تماما ما هو . أصعد مئذنة أو برجا . أصعد جريا لكن يدا ضخمة تدفعنى إلى أسفل .. أصرخ محتجا - يجب أن أنقذها .. يجب أن أنقذه ! .. يكون مركب صغير وسط أمواج عاتية ومن فوقه طيور كالنسور تحوم وتنقض فوق المركب كالنذير .. يظهر شخص فوق صخرة عالية يرتدى زيا رسميا وبيده عصا كالصولجان .. يشير

أتلذذ بإهانة نفسى حقا يا إبراهيم ! ولكن إبراهيم معه حق ! .. كيف يمكن أن يأتى النوم وأنت تعذب نفسك بهذه الأفكار ؟ .. لم لا تتذكر بدلا من ذلك الأشياء الحسنة التى فعلتها ؟ .. لمْ لا تفكر مثلا فى أنك صممت على أن تعلن فقرك وعلى أن تقهر فى داخلك إحساس المهانة بسبب هذا الفقر ؟ .. لم تفعل مثل آخرين تعرفهم يقضون عمرهم فى محاولة الهرب من أسرهم الفقيرة وفى إخفاء نشأتهم المتواضعة . لم لا تذكر أنك عندما وقع الانقلاب فى الصحيفة رفضت أن تساير الركب ؟ .. لم لا تذكر ما قلته لمن جاء يوسوس لك : ابعث برقية تأييد للرئيس ! .. الرئيس معجب بك ويعرف أنك صاحب قلم . اكتب افتتاحية ضد مراكز القوى ! صرفته بأدب قائلا لن أرسل برقية ولن أكتب افتتاحية . كنت تعرف أنه سينقل ذلك وأردت أن ينقله . لم تقل خطبة عصماء ولكنك أردت فقط أن يعرفوا أنك لست للبيع فعرفوا ودفعت الثمن . ولم لا تتذكر أنك حاربت السقوط بعد أن تركتك منار ؟ .. إنك حاربت أن تنهار أمام مهانة الحب المخذول ؟ .. إنك رفضت أن تشكو وأن تتاجر بجراحك ؟ .. إنك حاولت فى كل الظروف أن تنجو من السقوط فى بئر الرثاء لحالك ثم أن تجعل من هذا مبررا لكل سقوط ؟ ..

ألا يغفر لى هذا ياإبراهيم ؟ .. ألا يغفر لى أنى حاولت يا إبراهيم ؟ .. ولكن ما أهمية . هذا كله الآن ؟ .. ومتى يسمح لى ذلك الطفل بأن أعقد الصلح معه ؟ .. متى يتركنى ؟ .. لو يأتى النوم ! ..

لكنه لا يأتى .. أغفو قليلا فتدهمنى أحلام أصحو منها فى فزع دون أن أذكر ما هى . أجلس فى الفراش مرة أخرى وأقاوم الرغبة فى أن أقوم وأدخن . أستعين بتحذيرات الطبيب لأمنع نفسى . يزورنى وجهه المتجهم بعد أن فحصنى وقاس الضغط فى آخر مرة . عندما طلب منى بهدوء ألا أرجع إلى عيادته مرة أخرى إن واصلت التدخين . أذكر الصداع العنيف فى أزمة الضغط الأخيرة فتهدأ رغبتى فى التدخين لكن النوم بعيد .

إذن ما رأيك فى الشعر ؟ .. جربته فى مثل تلك الليالى ... أسترجع كل أبيات الشعر التى أحفظها إلى أن يغلبنى النوم . نبدأ بالشعر الجاهلى ؟ .. بطرفة بن

العبد الذى تعشقه ؟ .. ليكن : لخولة أطلال ببرقة ثهمد ، تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد .. هل هى فى ظاهر اليد أو فى باطن اليد ؟ .. لا يهم . أكمل . دعك من وصف الناقة . ادخل على : فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد ... ثم ماذا ؟ .. آه . ومازال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى .. إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبَّد .

نعم ، بالضبط أيها الأستاذ البعير المعبد ! .. هذا هو أنت – تحامتك العشيرة مع أنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى حلقة القوم ! .. ولكن ربما لأنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى الحلقة ؟ .. هكذا لن نصل إلى شىء . ليست هذه ليلة طرفة على أى حال . لا تصلح لما نحن فيه . دعك من الشعر الجاهلى كله لكى لا يأتى بيت : أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصال عقد حبائل جذامها . لكى لا تجر نوار منار. أدخل على المتنبى – ولكن هناك أرق على أرق ومثلى يأرق . دعك منه الآن أيضا . لن يجلب نوما . من إذن ؟ .. البحترى ؟ .. صنت نفسى ؟ .. جعجعة أكثر من اللازم فى الليل . صلاح عبد الصبور ؟ .. جارتى مدت من الشرفة حبلا من نغم ؟ .. ولكننا سنصل مباشرة إلى طلع الصباح فما ابتسمت وكل ذلك الحزن . أمل دنقل ؟ .. سيجرنا على لا تصالح فنظل حتى الصباح فيما نهرب منه . نريد شاعرا هادئا .. زهير ؟ .. عمر بن أبى ربيعة ؟ .. كثير عزة ؟ .. السياب ؟ .. أحمد شوقى ؟ .. من ؟ .. من؟.. شاعر مريح .. شاعر طيب .. لكنى أدخل فى بهو طويل على جانبيه صفان من رجال صلع الرؤوس عرايا الصدور يبتسمون فى مكر وأنا أمر بينهم مسرعا .. شىء مهم يجب أن أفعله وإن لم أدرك تماما ما هو . أصعد مئذنة أو برجا . أصعد جريا لكن يدا ضخمة تدفعنى إلى أسفل .. أصرخ محتجا – يجب أن أنقذها .. يجب أن أنقذه ! .. يكون مركب صغير وسط أمواج عاتية ومن فوقه طيور كالنسور تحوم وتنقض فوق المركب كالنذير .. يظهر شخص فوق صخرة عالية يرتدى زيا رسميا وبيده عصا كالصولجان .. يشير

بعصاه بطريقة آمرة .. ينهرنى قائلا تأخر الوقت ! .. أحوِّل عينى إلى حيث يشير بعصاه.. أسمع صرخة وأرى عربات إسعاف كثيرة مقبلة .. فأجرى . لا أعرف إن كنت أجرى منها أو أجرى خلفها ...

★★★

مددت يــــدى وأنا فى الفراش وأسكت المنبه .

★★★

فى الصباح أخذت حبة علاج الضغط مع كوب العصير .

كنت أشعر بتعب شديد ولكننى اتصلت بإبراهيم فى فندقه لأقول له إننى أخذت موعدا مع أحد الصحفيين وإننى سأمر عليه فى الفندق لكى نذهب معا .

وكنت قد حددت بالفعل موعدا مع برنار ، هو أول من طرأ على بالى عندما طلب منى إبراهيم أن أقدمه لمن أعرفهم من الزملاء فى البلد . لم تكن علاقتى بالصحفيين تتجاوز المقابلات العابرة فى المؤتمرات أو فى الحفلات الرسمية . واكتشفت بسرعة أن الأمور هنا تختلف عن بلدنا ، حين تدعو من تتعرف عليه بعد أول أو ثانى مقابلة لكى يزورك فى بيتك ، عرفت أن الصحفيين هنا ، مثل غيرهم ، لا يرحبون بالعلاقات الاجتماعية التى لا تفيد . ولم أكن أنا مصدرا مهما للمعلومات أو على علاقة بجهات ذات نفوذ تجعلهم يسعون إلى معرفتى ، فاعتبرت هذه العزلة جزءا من فترة العقوبة التى أقضيها فى المنفى والتى لم أكن أعرف لها نهاية .

ومع أن برنار أيضا لم يدعنى إلى بيته فقد كان يختلف عن بقية الصحفيين الذين أقابلهم . حتى مظهره كان يختلف . هندامه دائما فى الحد الأدنى المقبول ولكنه بعيد جدا عن تلك الأناقة المحكمة التى تميز الصحفيين البارزين، والذين أراهم دائما بياقات القمصان العالية وربطات العنق «الموقعة» ، والسترات من بيوت الأزياء الراقية إلخ .. إلخ . على العكس ، كانت سترة (برنار) تبدو دائما

أوسع قليلا مما ينبغى ، ربما لكى تخفى بطنه الكبير . ولم أره مرة واحدة فى البرامج التى تستضيف الصحفيين فى التليفزيون . لا أظن أنه كان يستطيع أن يتغلب على تلقائيته فى الحديث وأن يعرض أفكاره على الشاشة بطريقة منمقة لا تغضب أحدا كما يفعل الآخرون . ولا أظن أيضا أنه كان لديه الوقت لذلك . كنت أعرف أنه أرمل وأنه يتبنى طفلا فييتناميا من لاجئى القوارب ويرعاه بمفرده منذ ماتت زوجته .

وبينما كنا فى الطريق إلى المقهى الذى تواعدت فيه على اللقاء مع برنار راح إبراهيم يرتب مرة أخرى الأوراق التى يحملها فى حقيبته الجلدية الصغيرة ، وبدا أميل إلى الصمت والشرود . أما أنا فكان خمول الصباح قد فارقنى وحل محله ذلك النشاط الزائف الذى تولده عندى القهوة مع قلة النوم . ولم أكن أستطيع أن أسيطر على رغبتى فى أن أتكلم عن أشياء جادة وأشياء فارغة ، ولكن إبراهيم كان يرد على باقتضاب وكان يحول دفة الحديث دائما إلى العمل الذى جاء من أجله ، ويسألنى عن اتجاهات الصحف التى تصدر فى البلد ، وأيها يمكن أن يساعده فى عمله . وحتى عندما كان يسأل عن ذلك كان واضحا أنه يفكر فى شىء آخر .

وجاءت خيبة أمله الأولى فى الصحافة عندما قابلنا برنار .

تقابلنا فى المقهى المقابل للدار التى يعمل فيها ، وكان ملتقى للصحفيين ، تحرص صاحبته (إيلين) على أن تضع فى أركانه صورا فوتوغرافية للكتاب المشهورين وهى تقف إلى جوارهم أو تضع يدها على كتف واحد منهم . وفى صدر المكان كانت هناك لوحة زيتية كبيرة ، يبدو عليها القدم لا الأصالة ، لامرأة ممتلئة إلى حد ما تلبس ثيابا شفافة وتمسك بيدها اليمنى ريشة طائر بيضاء طويلة وباليد الأخرى ميزانا متوازى الكفتين .

قال برنار بمجرد أن عرفّته على ابراهيم : قادم من لبنان ؟ .. لابد إذن أن لديك آخر الأخبار .

فنظر إليه إبراهيم طويلا واعتقدت أنه لن يرد ولكنه قال أخيرا بهدوء :

ـ ما الذى تود أن تعرفه عن لبنان ؟

ـ ما يود أن يعرفه كل إنسان . أن أفهم سر هذه الحرب الأهلية الطويلة وأن أعرف ما الذى يدور هناك .

ـ ولكن لا يوجد أى لغز . أنت تعرف أن إسرائيل تسلح جيشا فى الجنوب وتسلح الكتائب فى الشمال لكى تستمر الحرب أليس كذلك ؟

هز برنار رأسه قائلا : ليست المسألة بهذه البساطة . اللبنانيون ليسوا دمىً مع ذلك يحركها من يشاء . لابد أن هناك غلطة ما فى لبنان ذاته .

لم يعلق إبراهيم على ذلك وأخذ بدلا من ذلك يحدثه عن دوريات إسرائيل التى تخطف الفلسطينيين واللبنانيين من الجنوب . ثم أخرج من حقيبته مجموعة الأوراق التى كان قد رتبها وقال لبرنار :

ـ خذ مثلا . هذه حالة السائق اللبنانى سعيد داكر . أوقف الجنود عربة الإسعاف التى كان يقودها فى جنوب صيدا واعتبروه إرهابيا لأن السيارة كانت تتبع الهلال الأحمر الفلسطينى . عصبوا عينيه ووضعوه فى سيارة عسكرية أخذته إلى إسرائيل وانهالوا عليه ضربا بالعصى وبكعوب البنادق حتى حطموا عظام ساقيه فلم يعد يستطيع المشى . تعرض أيضا للتعذيب بالكهرباء مثلما سمعت بالأمس من بيدرو إيبانيز بالضبط . ها هى صور لآثار التعذيب بالكهرباء حول حلمتيه وهناك بالطبع آثار فى المواضع الأخرى . ومعك شهادة طبية محايدة عن حالته .

قال برنار وهو يتصفح الأوراق ويقرأ سطورها بسرعة : نعم ، هى حالات واضحة ولو أن اللغة المكتوبة بها رديئة جدا .

قال إبراهيم باستغراب : حقا؟ .. قال لنا الزميل اللبنانى الذى ترجم هذه الأوراق إلى الفرنسية إنها لغته الأم !

فقال برنار – هو إذن ابن ميثوس منه ، وإن لم تكن هذه هى المشكلة . أستطيع بسهولة أن أعيد صياغتها وأن أكتبها لك باللغة التى تجعلها قابلة للنشر غير أن هذا لن يحل شيئا ..

ثم أكمل بهدوء وهو يعيد الأوراق إلى إبراهيم : لن تجد صحفيا هنا مستعدا لنشر هذا الكلام .

قال إبراهيم : لماذا ؟ .. أنا أعطيك حالات محددة بالأسماء وبالشهادات من مصادر محايدة .

فقاطعه برنار – وأنا أصدقك مائة فى المائة ، ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أنشر هذا ...

قال إبراهيم فى خيبة أمل : ولكن لماذا ؟..

تطلع إليه برنار من خلف نظارته السميكة وهو يقول ببطء : أنت تعرف لماذا . إن قلنا إن هناك جنودا مسلحين يخطفون مواطنين عزلا من السلاح من دولة أخرى فهذا اتهام خطير..

قاطعه إبراهيم : ولكنى أعطيك دليلا على ما أقول وأعطيك أسماء حقيقية ...

تردد برنار قبل أن يقول : لا يكفى . قلت لك أنا أصدقك ، ولكن كيف يصدقنى رئيس التحرير ؟ ماذا أفعل أنا أو يفعل هو لو جاءنا تكذيب رسمى وقيل لنا إن هؤلاء فدائيون وإننا بذلك نشجع الإرهابيين ، أو قيل أخطر من هذا، إننا نعادى السامية بالدفاع عن هؤلاء الإرهابيين ؟

تمتم إبراهيم وكأنه يحدث نفسه : تعادى السامية ؟ ما الذى جرى للدنيا ؟ .. كنت أعرف أنى سأجد صعوبة ولكن ليس إلى هذا الحد .

فضحك برنار وهو ينظر نحوى قائلا : لماذا تبتئسون بسرعة ؟

لوّح إبراهيم بالأوراق التى فى يده وقال : بسبب ما نراه .

سكت برنار لحظة ثم قال : ولكنك تعرف أن الصحفى كالطبيب . يجب أن

يبتعد مسافة ما عن الحالات التى يعالجها . يجب ألا تكون هى همه بالليل وبالنهار إن أراد أن يعيش ...

قلت مازحا - إبراهيم صحفى ملتزم .

قال برنار - وحتى الصحفى الملتزم له حياته وله أفراحه وهمومه الخاصة . أعرف صحفيا يعتبر نفسه ملتزما مثل إبراهيم .. تتوالى عليه منذ الصباح أنباء العالم ومشاكله : الحروب والمجاعات والجرائم ، يهتم بها كثيرا ويحزن لها . ولكن ما يوجع قلبه بالفعل طول الليل والنهار هو أن ابنه الذى أحبه ورباه ما إن كبر قليلا وكون أسرة حتى نسى أباه تماما . لا يكلف نفسه أن يطلبه بالتليفون مرة كل أسبوع أو حتى كل شهر ليسأل عن حاله أو ليعرف حتى إن كان حيا أو ميتا ...

كان صوت برنار يمتلىء الآن بالمرارة ، ولم يبد لى أنه يتكلم عن مجرد صحفى يعرفه . وسألت نفسى إن كان له ابن من صلبه ؟

غير أنه استرد نفسه بسرعة وقال وهو يلتفت إلى ابراهيم : أرأيت ؟ هذه مشكلة صغيرة جدا ولكنها يمكن أن تشغل الصحفى أكثر من حرب لبنان . اهدأ... منذ جلسنا معا وأنت مشدود كالوتر ، مع أنك تعرف بالتأكيد ما هى مشاكل المهنة . فلنفكر إذن فى حل لمشكلة هذه الأوراق التى تعذبك ...

وفى هذه اللحظة كانت إيلين صاحبة المقهى تتقدم نحونا بقامتها القصيرة وشعرها الأشقر المصبوغ وهى تحمل فنجانى القهوة . وضعتهما أمامى وأمام إبراهيم وهى تقول بابتسامة عريضة : صباح الخير ياسادة ..

وقالت لى : هذه هى قهوتك الطبية كالعادة يا سيدى ! .. القهوة بدون كافيين.. وتحولت إلى برنار تسأله : كوبا آخر يا سيد برنار ؟

نظر برنار إلى الكوب الذى فى يده متأملا ما بقى فيه قبل أن يتخذ قرارا ثم قال لإيلين كأنما بشىء من الأسف - لا ، لابد أن أعود إلى العمل . ولكنّى سألتك عن زوجك على ما أظن . إن كان هنا فقولى له إننا نود لو نراه ..

ظلت إيلين منحنية على المائدة وقالت : بالطبع هو هنا ولكنه فى المطبخ ، لابد من إعداد الغداء للزبائن كما تعلم ، هل أقول له ؟

- نعم .

انسحبت إيلين وتطلعنا إبراهيم وأنا فى تساؤل نحو برنار الذى قال لى :

- عندى لكما الآن مفاجأة .. سأقدمكما لمصرى مثلكما ، ولكن هذه ليست هى المفاجأة بالطبع . فالمصريون كثيرون هنا .. المفاجأة هى أنه زميل فى المهنة ! ..

دهشت حين رأيته وهو يتقدم منا بمريلة المطبخ البيضاء . ترددت خطواته قليلا قبل أن يصل إلينا ثم عاد وخلع (المريلة) وعلقها فوق مشجب وجفف يديه جيدا فى فوطة قبل أن يتجه نحونا من جديد . كنت قد رأيته مرات عديدة من قبل، وفى أول مرة لمحته شعرت أنه مصرى مع أنه كان أشقر ولم تكن ملامحه تختلف كثيرا عن الأوروبيين . كان فى سحنته ذلك الشىء غير المحدد الذى يجعل أبناء كل بلد يتعرفون على بعضهم البعض . ولكنه فى المرات التى رأيته فيها فى المقهى لم يظهر أى إقبال ولم يحاول أن يتحدث معى فقلت لنفسى ربما أخطأت فى تخمينى . أما ما أدهشنى الآن فهو اكتشافى أنه زوج لإيلين . كان أصغر منها فى السن بكثير ، وقلت لنفسى إن الفارق لا يقل عن عشرين عاما بأية حال .

صافحنا بيد رطبة بما تشربته من المياه رغم ما بذله من جهد فى تجفيفها ، بينما كان برنار يشير إليه قائلا : السيد «يوسف» . وبعد التعارف سحب مقعدا وجلس على طرفه مطرقا ومحرجا .

قال برنار مشجعا : هيا يا يوسف . أدخل فى الموضوع بسرعة . السيدان صحفيان ومن بلدك .

قال يوسف : المسألة ليست سهلة وتحتاج إلى وقت .

قال برنار : مفهوم، المطلوب الآن أن تحكى الخبر باختصار . ألا تريد أن تكون صحفيا ؟ .. يجب أن تتعلم الإيجاز .

ثم التفت برنار نحوى وقال : وباختصار يوسف يريد أن يصدر صحيفة عربية من هنا . ويريد استشارتك فى الموضوع .

نظرت إليه باستغراب : تريد أن تصدر صحيفة مرة واحدة ! ... أنت مليونير ؟

فضحك يوسف وقال : لا . ولكن معى المليونير .

قلت : حتى ولو كان هذا صحيحا فهو لا يكفى . هل لك خبرة سابقة فى الصحافة ؟

قال متغلبا على خجله : نعم ولا . أقصد لم يسبق أن أصدرت صحيفة ولكنى كنت طالبا فى كلية الإعلام فى جامعة القاهرة ... منذ عدة سنوات .

سألته : ولماذا تركت مصر ؟

فضحك يوسف بصوت خافت وقال : هذا تحقيق صحفى أو تحقيق فقط ؟

قلت بما يشبه الاعتذار : لا ، هو مجرد فضول . لا ترد إن كان هذا يضايقك .

ـ لا يضايقنى على الاطلاق . كنت فى السنة الثالثة بكلية الإعلام وكان محكوما على بالسجن ستة أشهر ، لأننى اشتركت فى مظاهرة هتفت ضد السادات واشتبكت مع حرس الجامعة . هربت إلى ليبيا بعد صدور الحكم ومن ليبيا جئت إلى هنا .

قال إبراهيم بابتسامة صغيرة : إذن يا صديقى حالك من حالنا ...

فأشار يوسف باصبعه لليمين واليسار قائلا : لا . حالى ليس من حال أحد . ما رأيته منذ خرجت من مصر يكفى لكى ..

ثم سكت ..

فقال له إبراهيم : ولكن كيف وصلت إلى .. وتوقف قائلا لا ، لن أشترك فى هذا التحقيق .. معك حق يا يوسف ، كأننا نحاكمك .

وكانت تلك بالفعل هى المرة الوحيدة التى تدخل فيها ابراهيم فى الحوار ، ظل يتابعنا بعينيه ولكنى لاحظت أنه بعيد إلى حد ما ..

وفى تلك الأثناء كانت (إيلين) تحوم فى المقهى ، تضع على الموائد الخالية المفارش والشوك والسكاكين ولكنها تختلس نظرة نحونا بين الحين والحين . وكان يوسف يتابعها أيضا بنظره وهى تتنقّل بين الموائد.

قال برنار : طبعا أنا فهمت كل ما قلتموه باللغة العربية ، ولكن هل كل شىء على ما يرام ؟ .. هل اتفقتم ؟

قلت له : نحن بالكاد نتعرف على بعضنا البعض !

فضحك وهو يزيح كوبه – أخشى أنه لا يوجد وقت لأكثر من ذلك !

وبالفعل كانت إيلين تقترب منا ووضعت يدها على كتف برنار وهى تسأله : هل انتهيتم ؟ .. يسألون عن يوسف فى المطبخ . هو الرئيس كما تعلم !..

ظلت هناك ابتسامة على شفتيها ولكن نظرة صارمه أطلت من عينيها وهى تقول : أليس كذلك يا يوسف ؟ .. يحتاجون إليك هناك .

لم يرد يوسف ولكنه قام قائلا : سأتصل بك بالتليفون يا أستاذ . أعرف اسمك وسأستخرج رقمك من الدليل .

هز رأسه محييا وهو يبتعد وإيلين وراءه . وعندما اختفى قلت لبرنار :

– هل هذه القصة الحقيقية أم أنها مجرد أحلام ؟ .. هل يوجد بالفعل مليونير؟

رد برنار ببطء وهو يهز رأسه مؤكدا : هو ليس مليونيراً فقط ، بل أمير عربى أيضا . ليس أميرا فقط بل أمير تقدمى أيضا .

كررت باستمتاع : ليس أميرا فقط ، بل تقدمى أيضا .

فقال برنار : أنا لا أمزح . هو أمير من بلد فى الخليج ، كان يوسف يعمل معه فى وقت من الأوقات ، وهو الآن يريد أن يصدر هنا صحيفة باللغة العربية ، وكلف يوسف أن يدرس له المسألة ..

مدينة هو الأشجار والخضرة . ومع الشيخوخة أصبحت أبحث عن كل ما يذكرنى بطفولتى .. بمجرى النيل وبأشجار الجميز والصفصاف . أنا فلاح كما تعلم!... يمكن أيضا أن نذهب إلى مقهاك بجانب النهر .

ـ سنذهب إلى هناك للغداء إن أردت . ولكن هناك حديقة صغيرة بالقرب من هنا وأنا أيضا أحبها . أسميها حديقتى السرية .

وبينما كنا فى طريقنا من وسط المدينة المزدحم نجتاز شارعا جانبيا يهبط نحو النهر سألنى إبراهيم بطريقة عابرة :

ـ إلى إين أخذت بريجيت بالأمس ، أو أين أخذتك هى ؟

فقلت : أوصلتها حتى بيتها .

.. هل أقول له أيضا لو سألنى إننى صعدت إلى شقتها ؟ وماذا سيظن لو قلت له ذلك ؟

لكن إبراهيم لم يسألنى عن شىء .. وعندما وصلنا إلى واجهة بناية قديمة دلفنا من بوابتها المقوسة واجتزنا ممرا صغيرا فأصبحنا فى الحديقة التى تتوسط باحة كبيرة بين عمائر قديمة ترجع إلى قرن مضى على الأقل . وكانت بالفعل حديقة سرية جميلة لا تراها من أى مكان فى الطريق .

توقف إبراهيم فى مدخل الحديقة مبتسما وظلل يديه بعينيه وهو يدور ببصره بين أشجارها وقال لى بطريقة عابرة : هل تأتى هنا لتحب ؟

فرددت أيضا بلهجة عابرة :

ـ ألم تكن أنت الذى قلت بالأمس إننا تجاوزنا هذه السن ؟

لم يرد إبراهيم وراح يسير ببطء وأنا أتابع خطواته وسط الممرات التى تحف بها أشجار الحور العالية بخضرتها الكثيفة وأشجار الكستناء التى بدأت تطرح ثمارها الخضراء المستديرة . سار يتأمل أيضا أحواض الزهور على جانبى الممرات ، وكانت ورودا تشرع أوراقها الحمراء والصفراء فى زهو الفتوة مع

الصيف الجديد ، و إلى جوارها أحواض أخرى لزهور البانسيه ، فى ألوان مختلفة بيضاء وبنفسجية وبنية ، وفى قلب كل منها خاتم أصفر مستدير من نقط صغيرة كالوشى المنمنم . وبدا إبراهيم مستغرقا تماما فى تأمل تلك الزهور فلم نتبادل كلمة إلى أن جلسنا على مقعد فى ركن يشرف على الحديقة كلها .

ظللنا نجلس صامتين وكل منا مستغرق فى أفكاره . ولكن إبراهيم هو الذى قطع ذلك الصمت حين سألنى دون أن ينظر نحوى :

ـ ما هو عمر ابنك ناصر ؟

التفت نحوه فى شىء من الدهشة : اسمه خالد كما قلت لك . عما قريب سيصبح عمره ٢٠ سنة. ولكن غريب حقا أن تسألنى عنه الآن . كان خالد على بالى فى نفس اللحظة التى سألتنى فيها عنه . ولكنى كنت أفكر فى أن اليوم هو موعد مكالمتى معه . أما أنت فما الذى ذكرك به؟

ـ تذكرت عندما كنت فى مثل عمره .

قلت بقلب مثقل : بالتأكيد أنك كنت تختلف عنه

ـ كيف ؟

– خالد تغير كثيرا فى الفترة الأخيرة . كان شابا عاديا يحب الرياضة ويحب قراءة الأدب والشطرنج بصفة خاصة . كنت أنا الذى علمته الشطرنج ولكنه بدأ يهزمنى حتى وهو فى سن ١٤ أو ١٥ وأسعدنى ذلك مثل كل أب .

وتوقفت قليلا قبل أن أكمل : وكان أيضا متدينا طول عمره ، أما الآن فقد ذهب بعيدا ..

– تقصد أنه انضم إلى الجماعات أو شىء من هذا النوع ؟

– لا ولكنه أصبح يغالى كثيرا ، حتى طريقته فى الكلام تغيرت .

ثم غلبنى الحزن وأنا أقول له : هنادى تقول لى الآن إنه لم يعد يشاهد التليفزيون وإنه يريد منها أيضا ألا تشاهده .

ضحك إبراهيم وقال : فى هذا بالذات معه حق ! .. التليفزيون عندنا جهاز للتخلف العقلى.

أراد إبراهيم فى الغالب أن يغير الجو وحين رأى أنى لم أستجب له قال :

ـ اسمع يا صديقى، هذه مرحلة من العمر . هل يدهشك لو عرفت أننى فى مثل سنه أو عندما كنت أصغر منه قليلا لم أكن أغادر المسجد ؟ لم أكن أكف عن الصلاة ، وأكرر الوضوء لأن وسواسا أتانى أنى قد نقضت وضوئى وأستغفر الله لذنوب لم أرتكبها . استغفر لمجرد أفكار محرمة طافت فى ذهنى. كنت أبكى وأنا أدعو الله أن يغفر لى هذه الأفكار الشريرة وأعد بالتوبة عنها ..

ـ كلنا مررنا بذلك .

ـ وإذن فلماذا تخاف على خالد ؟ .. هو أيضا سيجد طريقه . هيا - مرة أخرى أنا آسف لأنى أبعث أفكارا مزعجة . هيا .. فلنترك هذه الأفكار .. سأقول لك الآن شيئا يدهشك بحق ! .. هل تصدق أن حديقة منزلنا فى القرية كانت بمثل هذا التنسيق والجمال ؟ .. لم يكن أبى يتساهل مع البستانية أبدا لو حدث أى إهمال .

حاولت الابتسام وأنا أقول : سمعت أنه كان قصرا لا منزلا .

ـ لا ، هذه مبالغة . كان بيتا كبيرا ، ولكنه كان بيتا جميلا ..

ثم سكت لحظة قبل أن يضيف وقد غلبه هو الاكتئاب فى هذه المرة :

ـ ولكنى لم أعرف فيه السعادة أبدا ..

ـ حتى أنت ؟

تطلع إبراهيم نحوى وقال فى بطء : ماذا تقصد حتى أنا ؟ .. نعم ، حتى أنا!.. سمعتك مرات تتحدث عن طفولتك الفقيرة وصدقنى أننى فى بعض الأحيان كنت أحسدك ! .. كنت أسأل نفسى لماذا لم أكن أنا أنت ؟ .. لماذا لم أكن أى إنسان آخر بدلا من أن أكون أنا ؟ .. أحيانا ما تأتينى هذه الأفكار الغريبة ..

– هل كـــانت طفولتك شقية حقا إلى هذا الحد ؟

ولكنه واصل كأنه لم يسمعني : أسأل نفسى كثيرا فى هذه الأيام ، ما هى تلك المصادفات التى تتحكم فينا وتصنعنا ؟ هل كان من الضرورى حقا أن أولد ابنا لمالك الأرض فى القرية ؟ .. وهل كان من الضرورى أن يملأ أبى البيت بالكتب التى يقتنيها ويجلدها ويطبع عليها اسمه بالخط النسخ المذهب دون أن يفتح منها كتابا ، ثم يترك لى أنا هم القراءة منذ تعلمت القراءة ؟ .. ماذا لو أن شيئا من ذلك لم يحدث ؟ هل كانت حياتى ستفسد من أولها ؟ .. هل كانت عينى ستقع على العطب فى كل شىء ؟ .. لماذا لم أستمتع بهذه الحياة مثلما يستمتع بها كل إنسان؟..

بدأ إبراهيم أسئلته بهدوء ثم تسللت نبرة من التوتر إلى صوته . وأوشكت أن أقول له إن هذه الأفكار ليست «علمية»، ولكنى أمسكت لسانى حين رأيته يحك جبينه بيده ويحدق أمامه مباشرة ، وكأنه يبحث الآن فى هذه الحـــديقة ، عن إجابة للأسئلة التى عذبته طويلا .

عاد ينظر نحوى أخيرا ويكرر سؤاله بصوت خافت : لماذا ؟ الآن أسأل نفسى: متى بدأت همومى . هل كانت أمى هى السبب؟ .. ربما . هى أول حزن وعيت عليه فى حياتى دون أن أفهم سببه . مازلت أراها هناك فى بيتنا الكبير فى القرية .. فى البيت الكثير الغرف ، المملوء بالأثاث وبالصور وبالكتب .. تتحرك وحيدة من غرفة إلى أخرى .. ترفع أشياء ثم تضعها مكانها . تقول للخدم الكثيرين أوامر ، ولكن بصوت غير واثق كأنها تتوسل إليهم ثم بسرعة تسحب ما أمرت به .. تقول للخادم : إن كنت متعبا أجل هذا العمل لبعد الظهر ولا داعى للعجلة .. الدنيا لن تطير .. تكاد تعتذر له عن وجودها . فى الصبح كانت تشغل نفسها بوضع الزينة .. أحمر الشفاه والكحل للعيون وتلبس ثوبا للخروج ومجوهرات كثيرة ثم لا تخرج من البيت ، ونادرا ما يزورها أحد . فقط تتحرك فى غرف البيت وتتنهد . أما أبى فلم أسمعه يناديها باسمها أبدا . كان يقول لها دائما

الفصل الخامس

كم أنت جميل !

عندما فتحت باب الشقة أطل على عبد الناصر مبتسما من صورته الملونة على الحائط . وكانت فى يدى الأشياء التى وجدتها فى صندوق البريد : أعداد من الصحيفة مرسلة من القاهرة وأوراق الإعلانات الكثيرة . فرزت الصحف ولم أجد من بينها عدد الخميس الذى تكتب فيه منار بابها الأسبوعى ، فوضعت الأعداد الجديدة على المكتب فى الصالة فوق الصحف الأخرى .

جلست الى المكتب وبدأت أحاول الاتصال بالقاهرة . بدأ قلبى يدق كالعادة وأنا أطلب الرقم متطلعا إلى صورة خالد وهنادى فى البرواز الموضوع على المكتب . حاولت مرات كثيرة دون جدوى . كالعادة كانت هناك إشارة الخط المشغول حتى قبل أن أنتهى من إدارة الرقم، أو صمت مطبق بعد أن انتهى من إدارته يستمر طويلا فأضطر إلى معاودة الطلب من جديد . كنت معتادا على ذلك وأعرف أنه لا حل غير تكرار المحاولة مرات لا حصر لها فبدأت أدير الأرقام بأصبعى فى القرص بصورة آلية وأنا أختلس النظر إلى عناوين الصحيفة التى أمامى . وفجأة دون أن أشعر ودون رنين مسبق أتانى صوت هنادى كالمفاجأة :

«ـ آلو .. بابا ؟

ـ أيوه ياحبيبتى .. إزيك يا هنادى ؟

ـ هلكانة من المذاكرة ، والدنيا حر جدا .

ـ معلهش شدى حيلك يا هنادى هانت ..الامتحان الأسبوع الجاى ، مش كده ؟

ـ أيوه . ادعى لى يابابا ؟

ـ بادعى لك دايما ياحبيبتى بس عايزين مجموع حلو فى الإعدادية السنة دى .

ـ حلو يعنى كام كده يا سى بابا ؟

ـ على قد ماتقدرى. يعنى نقول ٩٠ فى الماية مثلا ؟

ـ نعم ؟! ده إحنا ٦٠ فى الماية نبوس إيدنا وش وضهر .. و ٥٠ فى الماية حلو برضه ، مالها الخمسين ؟ هو أنا حادخل الجامعة بالإعدادية ؟

ـ ماهو لو ماكنتيش من دى الوقت .. ولا أقول لك ! خلاص إنتى ذاكرى وبس .. وما تفكريش ولا فى مجموع ولا فى أى حاجة تانية ..

ـ أنا مش بافكر فى المجموع ، بس أنا با أفكر فى حاجة تانية مهمة جدا.

ـ إيه هى ؟

ـ هدية النجاح طبعا ياسى بابا !

ـ يعنى ؟

ـ يعنى تتقل جيبك كويس جدا، لأنى السنة دى عايزة تعمل لى اشتراك فى النادى بتاع الفروسية . عايزة أتدرب على ركوب الحصان .

ـ ودى حاجة كتيرة يعنى ؟

ـ قول مثلا خمسماية ، ألف إزاى ما حضرتك تحب .

ـ ألف؟ معقولة ؟ وكل ده عشان ٦٠ فى الماية ، أمال لو كانوا ٩٠ ؟

ـ كنت حا أقول لك اشترى لى عربية طبعا ! .. خد يابابا .. أهو خالد الصمام بتاع الامتياز والتسعين فى الماية والحاجات ده . باى باى بابا .

ـ باى باى يا هنادى . آلو ؟

جاءنى صوت خالد عميقا ووقورا وهو يقول بالفصحى :

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام ياخالد .. إزيك يا ابنى ؟

ـ الحمد لله يابابا .. وأنت إزاى صحتك ؟ كويس إن شاء الله ؟

ـ كويس جدا. صحيح جبت امتياز يا خالد؟